الفصل الثاني

واقع الإسلام فى الفكر الغربى

الفصل الثاني

واقع الإسلام فى الفكر الغربى

يتضح مما ورد على الصفحات السابقة أن البغضاء للإسلام قديمة، ومنذ بداية الدعوة، بل وقبل ظهورها - لأنه كان مذكوراً فى الكتب السابقة على القرآن الكريم - وزاد ذلك العداء والخوف من الإسلام بعد فتح "الأندلس"، وتجاوز الخوف إلى التآمر عليه بعد توغل الدولة العثمانية فى قلب أوروبا، ولذلك كان ومازال الخوف من ظهوره على الدين كله قائلا، حتى وأن أعداء الإسلام دائما فى إعداد للانقضاض على المسلمين لإبادتهم أو تدميرهم أو إضعافهم.

ودائما يحاول أعداء الإسلام إذلال المسلمين بإضعافهم، وسلب قوتهم ثم مساومتهم وقتالهم، وحتى فى شعوبهم يحاولون بث الكراهية للإسلام بين صفوف الطبقات الوسطى من شعوبهم، حتى لا تتجه إلى التفكير والبحث عن المفاهيم الحقيقية للإسلام، ومن خلال **الإعلام الموجه**، يحقق أعداء الإسلام أهدافهم، والتهويل للأحداث التافهة التى قد تحدث فى بلاد الإسلام، واتخاذها ذريعة ضد المسلمين لتشويه الإسلام، بإعادة صياغتها بصورة تتفق وتحقيق أهدافهم فى إلصاق الأباطيل والافتراءات على الإسلام، تارة بالعنف، وأخرى بالإرهاب، والإسلام منهما برئ (٤٧: ٥٨)، ولا يقف الحد عند التهويل، وإنما يصل الأمر إلى افتعال المشكلات الضخمة التى تثير العداء للإسلام لمناهضته، واجتياح بلاد المسلمين وتدمير مقدراتهم، وصدق قول الله تعالى فيهم: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾**

[آل عمران: ١١٨].

وكأن أعداء الإسلام – وهم كثير– يريدون أن يكرهونا على ترك الإسلام، حقداً علينا، كما تركوا هم مسبقا الكنيسة فى القرون الوسطى، وعصور النهضة، حيث انطلقت أوروبا تسعى بالعلم وحده، فغزت العالم وسيطرت على ثروات الشعوب ومقدراتها، وألصقت تبعاً لذلك بالمسلمين العديد من الصفات لتثبط هممهم، وتستغل ثرواتهم، وتبقى أيديها فوق ثرواتهم وأراضيهم (٥٣: ١٣٠-١٣١)، وصدق قول الله تعالى﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٩].

قبل الخوض فى مضمون الكتابات، والتغطية الغربية، عن العرب والمسلمين، سواء تلك التى قال بها المستشرقون، أو الأطروحات التى قال بها مفكريهم، أو التصريحات التى أدلى بها الحكام والمسئولون، وقبل الخوض أيضا فى محتوى المقررات الدراسية المغلوطة والمشوهة، التى تستهدف تنشئة أجيال متعاقبة، على مفاهيم بعينها مقصودة، فمن المفيد بداية الوقوف على إجابات **للتساؤلات التالية**، عسى تسهم فى بلورة مغزى وهدف تلك الكتابات على اختلاف مضمونها وتنوعها:

- حقا لقد صنع الغرب شرقه(*)، ولكن إلى أى مدى ساهم الشرق فى صناعة ذاته؟ وصناعة غربه؟
- لماذا انحصر (الآخر) بالنسبة للشرق فى الغرب المسيحى؟
- لماذا ظل الشرق متمركزاً حول ذاته، حتى فى انفتاحه على الغرب؟
- لماذا لم يهتم الشرق بدراسة الغرب، ويقدم لنا "دراسات استغرابية" حول الغرب، كما فعل الغرب وقدم لنا "دراسات استشراقية" حول الشرق؟

(*) يقصد بالشرق هنا، الشرق الأوسط حيث العالم العربى الإسلامى.

- هل كان العامل الدينى – حيث الاختلاف العقائدى بين الشرق المسلم، والغرب المسيحى – هو العامل الحاسم، والحائل دون اهتمام المسلمين بالغرب المسيحى حتى فى أوقات ازدهار الحضارة الإسلامية؟

بداية لابد من الإشارة والتأكيد على مدى قوة وعظمة الإسلام، وإنصافه وإنسانيته، حيث حرص على **عدم التعميم والإطلاق فى الحكم والتقويم (للآخر)** – كل آخر – فمع هذا الذى قاله غير المسلمين فى الإسلام وصنعوه بالمسلمين، يدعو القرآن الكريم إلى عدم التعميم فى الحكم عليهم، فيقول الله تعالى: **﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾** [آل عمران، ١١٣-١١٥].

لذلك يجب ألا نعمم ونضع كل (الآخر) فى سلة الملعونين، قال تعالى: **﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** [المائدة، ٧٨-٧٩].

وعليه فحين نتحدث عن الغرب يجب أن نميز بين:

- **الإنسان الغربى:** وهذا لا مشكلة بينه وبين الإسلام، بل إنه يفتح قلبه وعقله لقضايانا العادلة، بل وأحياناً لدين الإسلام إذا نجحنا فى تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهة عن قضايانا وعقائد ديننا.
- **العلم الغربى:** وخاصة منه العلوم الطبيعية، والدقيقة، والمحايدة، وكذلك الخبرات والنظم التى حققت الحضارة الغربية فيها تراكما معرفيا هائلا وعظيما، فلابد من طلب هذا العلم والسعى لتحصيل هذه الحكمة، التى هى ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، لأنها مشترك إنسانى عام.

- أما المشكلة – كل المشكلة – فهى مع **المشروع الغربى** الذى يريد إلغاء المشروع الإسلامى، كما يريد إلغاء (الآخر الحضارى للأمم والشعوب غير الغربية)، وفرض النموذج الحضارى الغربى على العالمين (٤٦: ١٤٨-١٥٠)

لا يوجد (آخر) دون الوعى بوجوده، ويمكن لهذا (الآخر) أن يعيش طويلا فى بقعة ما فى زمن ما، ولا نشك لحظة فى أننا قد نلقاه يوما، فيصير (آخر)، فالعرب المعاصرون لم يصدموا بالآخر (الغربى) إلا بعد حملة نابليون عام ١٧٩٨، ومذ ذاك خرجوا عن سباتهم العثمانى، فأعجبوا بهذا (الآخر) ثم تقارنوا به، وقارعوه، وقاتلوه... الخ.

ولا توجد **علاقة بـ (الآخر) إلا على قاعدة غالب ومغلوب**، ومن دون هذه القاعدة، يضمحل (الآخر) ويصبح عدماً مندمجاً تمام الاندماج بحيث يصبح (الأنا)، فكل الحملات التى تخاض ضد (الآخر) ترمى إلى التشبيه والتماثل (١٥: ١٠٣)، وهذا هو جوهر ما أكده "**جيانى ديميكليس**" السياسى الإيطالى لصحيفة نيوزويك الأمريكية من أنه: "لكى يتجنب العالم الإسلامى خطر المواجهة مع الغرب الليبرالى، فإن عليه أن يتخلى عن نموذجه الثقافى، وينتهج النموذج الليبرالى الغربى". (٤٦: ١٣٩).

ودائما (الآخر) ضرورة، يقول **مستشار "جوربا تشوف"** بعد انهيار الاتحاد السوفيتى متوجهاً إلى الأمريكيين "إننا نسديكم شيئا رهيباً، إننا نحرمكم من الأعداء". وفى رواية "لرشيد ميمونى" يقول الراوى حزينا "بعد ما حرمنا من الأعداء، أصبحنا على أشد الاستعداد لتوجيه أفواه بنادقنا بعضنا ضد بعض" (١٥: ١٠٨).

صحيح أن الغرب اخترع شرقه، وصحيح كذلك أن الشرق اخترع غربه، كل من موقعه، وكل بطريقته وآلياته، وإذا كان اختراع (الآخر) يَحْول

فى –الحالتين – دون معرفته، فإن الجواب عن الاستشراق ليس الاستغراب كما يقول "أدوارد سعيد".

إن السمة الغالبة فى التناول العربى للاستشراق، هى رفض الصورة التى يحملها عن العربى، والمسلم، والبحث لها عن سياقات ودوافع، غير أن هذا الرفض لا يوازيه تساؤل عن الصورة التى يبنيها العربى عن الغرب، وعن علاقتها بواقع الغرب، إنه يشكو من **تشويه الغرب لصورته**، ولكنه لا ينتبه إلى أن صورة الغرب يمكن أن لا تكون أقل تشويها فى مخياله وخطابه، **وهو ما قد** يعنى أنه فى الوقت الذى يريد أن يكون ذاتاً، يواصل التخيل والكلام كموضوع أو كمرمى مستهدف.

لقد بقى نقد الاستشراق فى جوهره ملاحقة للذات، إنه تصيّد لها، خارج فضاءاتها المعهودة، قد يكون ذلك بأدوات معرفية متقدمة، وبذكاء كبير، كما هو الشأن فى استشراق "**إدوارد سعيد**" ولكن العلاقة بالنص الاستشراقى تبقى ذات شبه كبير، بعلاقة الرحالة بالبلد الذى يرحل إليه بحثاً عن ذاته... وقد أبرز "إدوار سعيد" ما للاستشراق من علاقة بين المعرفة والقوة، حتى رأى أن مجود وجود حقل "كالاستشراق" لا معادل له فى الشرق، يوحى بما للشرق والغرب من قوة **نسبية، وأن الهيمنة الثقافية تستمر برضى الشرقيين**، كما تستمر بضغط اقتصادى مباشر من قِبَل الولايات المتحدة، وإنه مما يدعونا إلى التفكير، أن نجد مثلا فى الولايات المتحدة عشرات المؤسسات التى تدرس الشرق العربى والإسلامى، فى حين لا توجد فى الشرق مؤسسة واحدة لدراسة الولايات المتحدة، رغم أن هذه الأخيرة تمثل التأثير الاقتصادى والسياسى والأساسى فى المنطقة. (٢٧: ١٩٢-١٩٤).

وينكر "**إدوارد سعيد**" على شتى الإنتاجات الاستشراقية كل الاستقلالية، وأنها غالبا ما تتوخى تأويلاً أحادى المعنى، فتحبسها داخل حقل الهيمنة الغربية، يستنتج من هذه الخاصية التأسيسية، تبعية الإنتاج الاستشراقى للاستعمار، وأنه

يتوجب على **الشرق، أن يعترف أمام نفسه بأنه الفاعل النشط فى بلورة صورته وهويته داخل الإنتاج الاستشراقى** البارع، بمعنى آخر، ليس الأوروبى وحدة هو المسئول عن **قولبة الشرقى فى قالب (آخريه)** لا معنى لها إلا فى حدود ذاتها، بل كان لابد للأوروبى أن يتواطأ معه الشرقى، حتى ينشئ هذا الضرب من اغتراب الهوية (٥٧: ٨١).

ومن نوافل القول، أن للغرب الإمكانيات الأوفر حظاً لمعرفة الشرق، فيما يد الشرق ليست بالطولى فى هذه المعرفة، جل ما بوسع الشرق تخيله هو الصورة التى لدى الغرب عنه -فكم من الدراسات حول صورة العرب فى... - وما تبقى من موضوعات للعلم لا يكاد فيها الشرق يتطرق إلى نفسه، وهو وإن كان جدّيا يقوم بذلك بالاستناد إلى المصادر الغربية. فهل بوسع أحد الادعاء بأن هناك علم "استغراب" يوازى "الاستشراق" قدماً أو ندرة أو عراقة؟ يقول "إدوارد سعيد" بأن **المؤلفات التى تبحث فى الشرق الأوسط** وحده، والصادرة بين الأعوام ١٨٠٠-١٩٥٠ تقدر بحوالى (٦٠) ألف مؤلفاً. هذه السعة فى معرفة الشرق لم تكن لتحصل، لولا القناعة السائدة والمبررة لديه بأن ثقافة الغرب هى الأعظم، وأنه بوسعه بالتالى اختراق سر الشرق الكبير، وتجميع المعلومات حوله ... بل حتى صياغته (١٥: ١٠٤).

وقد أشار "**على الكنز**" إلى ما كان يبدو غريبا فى موقف علماء الاجتماع العرب، المقيمين فى الخارج من تواصل اهتمامهم العلمى بمجتمعاتهم الأصلية، دون اهتمام بقضايا المجتمعات المقيمين فيها، إلى أن اضطر هو الآخر إلى مغادرة بلاده، وإلى أن يصبح مهاجراً فى أوروبا، فأصبح أكثر تفهما لموقفهم.

ويرى "**عبد الله العروى**" أن العلاقة بين الغرب الحاضر تتطلب نظرة من موقع التقاطع بين الصور المتبادلة بيننا وبينه، أن وضعنا يتطلب رؤية "لجدلية" تجعل منها وسيلة علاجية أكثر مما تجعل منها منهجية منطقية، حتى لا

نعيش الجدلية "كأيديولوجيا" دون القدرة على استعمالها "كمنهج" وهذا هو المشكل.

إن الآخر (الغربي) يمد العربي أو المسلم بوسائل تعريفه له، ومقاومته له، وهو بشكل عام يمده بمراجع **الفكر النقدي** حالما يكون نقدياً. لذلك فرغم كل الرفض المتواصل للرؤية الاستشراقية، فإن تأثيرها يجعل **الشرق الحديث يشارك في مشرقه ذاته**، هذا الوضع لم يتبلور بديل معرفي له حتى الآن، ولكن هناك بدائل عقائديه فقط.

إن "الآخر" هو (الغرب) تحدياً في الخطاب العربي الإسلامي المعاصر. ولكن كيف أمكن أن يكون مجال (الأخريه) مختزلا إلى هذا الحد، في آخر مفرد هو (الغرب)؟ أي كيف أصبح (الآخر) غرباً؟

لقد تعود المستشرقون، وعوداً غيرهم على استعمال المقابلة بين (الإسلام)، و(الغرب)، وبدرجة أقل بين (الإسلام) و(أوروبا)، وهي مقابلة يحافظ فيها أحد طرفيها على مضمونه الديني، في حين يكون الثاني فيها جغرافياً، ومجتمعياً، وسياسياً، وهي في كثير من الكتابات، امتداد صريح أو ضمني للمقابلة القديمة بين "دار الإسلام"، "دار الحرب" التي تفترض رغم وسائط الصلح والعهد، أخلاقية القطيعة، وديمومة العداء.

وهذه المقابلة بين الإسلام، والغرب، حالت دون اكتشاف المسلمين لأوروبا المسيحية، وهو ما ذهب إليه مثلا "**برنارد لويس**" حيث قال "هناك تجاهل إسلامي لأوروبا، وعدم اهتمام معرفي بها، يقابله حب استطلاع أوروبي، وإذا كان القرن الثامن عشر، خفف بعض الشيء منهما، فإن استعمار القرن التاسع عشر هو الذي فرض على المسلمين معرفتهم بأوروبا.

ويشير "لويس" إلى أن توجه المسيحيين إلى معرفة الإسلام، ليس مرده التسامح المسيحي، لأن **الإسلام كان أكثر تسامحاً** لأسباب دينية وتاريخية وعملية، كما لم يكن مرده **الأخذ عن المسلمين**، لأن هذه الصورة انتفت منذ

الصليبيين، وأن رفض المسلمين القطعي للغرب، مأتاه أنه في الفترة التي كان فيها الإسلام يواصل توسعه، ومازال مستعداً للتقبل، كاد لا **يكون لأوروبا الغربية ما تعطيه له**، بالعكس كانت تغذي غرور المسلمين، بمشهد **ثقافة واضحة الدونية**، وهي ثقافة على كل حال يكفي أن تكون مسيحية، لتفقد قبلياً قيمتها، وإن أوروبا كان منظوراً إليها من وجهة دينية، فهي لم تكن إذن غربية أو أوروبية بيضاء، وإنما كانت **مسيحية**، ويرى "لويس" أن الشرق الأوسط خلافاً للشرق الأقصى، **كان يعرف ويحتقر المسيحيين** (٢٧: ١٩٤-١٩٧).

❖ وهكذا رد "**برنارد لويس**" عدم معرفة المسلمين لأوروبا، لعدة أسباب حصرها في كونها مسيحية، وأنها كانت آنذاك ذات ثقافة متدنية، وليس لديها ما تعطيه للمسلمين، لذلك كان هناك ح قد، ونيم شديد، دفع الأوروبيين فيما بعد لاستعمار الشرق وتفتيته.

ويرى "**الطاهر لبيب**" **أن سيادة الخطاب المركز على الذات، حال دون تطوير معرفة علمية بالغرب**، رغم الاهتمام به، ورغم حضوره في الوعي، منذ القرن التاسع عشر، وقد يرجع ذلك للتالي:

[١] هناك اتفاق عام، على أن مسلمي العصور الوسطى لم يهتموا بمعرفة الغرب مقارنة باهتمام المسيحيين بالعالم الإسلامي، **كان الغرب يبحث عن العلم اليوناني، لا عن المعرفة بالإسلام في حد ذاته.**

إن النهضة – التي قامت إنسانياتها على الجمع بين العقيدة المسيحية، والتراث اليوناني جمعاً ينفي الإرث العربي الإسلامي في الفكر الأوروبي – هذه النهضة استنبطت صوراً من العداء والاستخفاف ليس لها أساساً معرفياً، كتلك التي قولبها "**بيترارك**" عن العرب، وحتى عن سوء شعرهم، الذي لم يكن يعرفه، ومن أبرز تلك الأمثلة المعروفة، صورة الرسول محمد ﷺ، حتى القرن الثامن عشر.

- إن عدم اهتمام المسلمون بالغرب، لم يكن لموقف من الدين المسيحى بدرجة أولى، فثقافة المسيحيين كانت جزء من ثقافات المجتمع العربى الإسلامى، التى تعايش معها المسلمون كأقلية فاتحة، وهو فعلاً تعايش "لأسباب دينية وتاريخية وعملية، حتى وإن علاقة العداء السياسى الدينى لم تلغى التعامل السلمى أو الإعجاب فى مجالات شتى، حتى يقال أن **هارون الرشيد** الذى بعث برسالته الشهيرة إلى "فقفور الأول"، "بعد رفضه لشروط الصلح التى كانت قد قبلتها الإمبراطورة "إيرين" أرسل إليه "شارلمان" وفداً لتسهيل سبيل الحج إلى "بيت المقدس"، ونشر التجارة بين البلدين، وارتشاف العلوم من مواردها فى الشرق، وقد رحب "الرشيد" بهذه الوفود وأرسل مفاتيح كنيسة "بيت المقدس" إلى "شارلمان" الذى أصبح حامى المسيحية، وتبودلت الهدايا بينهما. وفى العصر العباسى تحالف البيزنطيون مع الأمويين فى الأندلس للوقوف ضد العباسيين، بل أن تحالفات الحروب الصليبية، ستبين فى سياق حرج إلى أى حد هى متحركة الحدود الدينية، وإلى أى حد يتسع تداخلها بحكم المصالح إلى التناصر فى غير الدين، مثلما حدث، آنذاك، فى سوريا، التى قدمت كما يقول "كلود كاهين" مشهد اللامبالاة الدينية، فى المجال السياسى، ومشهد الارتباطات بين بيزنطه المسيحية، وهذا أو ذاك من الأمراء المسلمين ضد أمراء مسلمين آخرين، وقد بين "كلود كاهين" وكثيرون غيره، أهمية العلاقات التجارية فى الحروب الصليبية، وما يسرته من تعايش بين المسلمين والمسيحيين، حتى أن أهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس فى عافية، والدنيا لمن غلب، على حد تعبير "**بن جبير**" فى رحلته – صاحب كتاب رحلة ابن جبير فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية : عصر الحروب الصليبية ص ٢٠١١ – حيث يروى أنه فى الوقت الذى كان "**صلاح الدين**" يحاصر حصن الكرك، كان اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من مصر إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض.

لقد كان لـ"التواطؤ الصامت" بين التجار، دور أساسى فى تطويع العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، إذ لم يكن بين هؤلاء التجار مودة، ولا احتكار، كالذى كان للقدماء اليونان والرومان إزاء البرابرة، أو للمسيحيين المنتصرين إزاء الوثنيين.

وبشكل عام، فإن الإسلام، كما رأى **"أندريه مكيال"** الذى اهتم به كحضارة، سواء كان فى فضائه، أو فى علاقاته بالخارج - يعيش فى نهاية الأمر - فى حركة **من التبادل**، لابد من تأكيد هذا، إن قوته وضعفه مرهونتان بهذا التبادل.

- ***المسألة إذن ليست هى مسألة دينية بالدرجة الأولى، وانما هى مسألة علاقات تاريخية ومركبة. وإذا استبعدنا "العامل الدينى" فمن أين أتى عدم اهتمام المسلمين بالغرب؟***

لخص "هشام جعيط" - صاحب كتاب أوروبا والإسلام، عام ١٩٩٥ - الجواب عن هذا التساؤل فى التالى:

[١] إذا كان الإسلام الكلاسيكى غير مبال تجاه الغرب، فإن ذلك لم يكن بسبب **نقص توقه إلى المعرفة، بل لأنه كان يجهل الغرب، ويتجاهله، شعوراً منه بانعدام أية فائدة من وراء ذلك، لأن هذا الغرب هو واحد من (الآخر) المتعدد، خلال مرحلة مدهم الحضارى، حيث كانت هناك مناطق وشعوب أخرى ذات أهمية أكبر، وكانت لهم بها علاقات أوثق، ومعرفة أدق**، ولذلك تجاهله المسلمين وجهلوا به فى تلك المرحلة، لأنه لم يكن حاضراً فيها.

[٢] لم يكن المسلمون برابرة بالمعنى الاصطلاحى فى التاريخ الأوروبى فلا: [الأرض، ولا الجنس، ولا الدين، ولا كلها مجتمعة] رسمت حدودا ثقافية كالتى رسمها الإغريق، والرومان، لذلك لم ترسل النصوص العربية حدودا ثقافية غير متحركة بينها وبين بقية العالم، مثلما فعلت إغريقية الإغريق، ورومانية الرومان، أو مسيحية الأوروبى، فى نصوص القرون الوسطى.

[٣] أن التركيز على القرآن، والسيف فى التاريخ العربى الإسلامى، **أى على الدين والدولة كثيرا ما احتفظ بصور الفتح وعلاقاته** وأهمل بديهية أن للثقافى إيقاعاً تاريخياً مختلفاً، فلا تتفاعل عناصره، ولا تهدأ رؤاه، ولا تتكامل إلا فى أمد أطول من الأحداث، يمتد قبلها وبعدها، ولذلك يفضل المؤرخون الحديث عن **الحضارة**، باعتبارها محصلة تراكم تاريخى، فيعودون بها فيما يتصل بالتاريخ العربى الإسلامى إلى القرن التاسع.

إن الإسلام وريث الشرق الأدنى بثقافاته، واقتصادياته، وعلومه القديمة، لقد وفر المجتمع العربى الإسلامى أوضاع عديدة لمعايشة التنوع العرقى، والثقافى بما فيه الدينى، ضمن المنظومة الحضارية "القاعدية" التى تمثلتها ثقافته، وكان هناك ما يدفع إلى اعتماد فرضية الامتداد القياسى فى النظرة إلى الآخر، وهذا يعنى أن هذه النظرة، لم تكن من خلال (صفاء) العرب و/أو المسلمين، وإنما كانت بتمديد ما أصبح معروفاً بعد - لدى بعض الكتاب - من **تنوع الشعوب وثقافتها** خلال قرن واحد من التوسع الإسلامى (٢٧: ١٩٤-٢٠٥).

- ومَنْ يطلع على الكتابات والتغطية الغربية عن العرب، والمسلمين خاصة، يلاحظ أنها تتم سواء بصورة منفصلة مستقلة، أو بصورة متداخلة متكاملة من خلال عدة مصادر أهمها ما يلى:

أولا: الإسلام فى فكر ودراسات بعض المستشرقين

بداية نؤكد أنه نتيجة لازدهار الحضارة الإسلامية على كافة محاورها، راح ينسج أعداء الإسلام صورة مزيفة قُلب فيها خصائص الإسلام وحقائقه رأساً على عقب، وبعناية وحرص، بغية تسويق هذه الصورة البشعة المنفرة والمخيفة، للمواطن الغربى بهدف تحصينه ضد الإسلام، **وتحول بعض رجال الكنيسة إلى مبشرين محترفين ومستشرقين**، يدرسوا الإسلام فى كل جوانبه بهدف دحضه وتشويهه، وبذلك خاضوا أكبر وأوسع عملية تزييف وعى فى التاريخ الإنسانى كله، **وخانوا أماناتهم، بل وأساءوا إلى الإنسانية كلها، إذ تسببت أعمالهم**

ودراساتهم فى توتر العلاقات، وتكريس العداء المزمن والمستحكم، بين الغرب والإسلام والمسلمين، فضلاً عن تأجيج نيران "الحروب الصليبية" فى العصور الوسطى، ثم حروب الاستعمار، ثم محاولات الغرب المستميتة، وفرض السيادة والسيطرة على المسلمين (٤٥: ٣٤٢-٣٤٣).

وأنجز بعض الباحثين الغربيين ما يزيد على (ستين ألف) دراسة، عن الثقافة العربية الإسلامية، فى مدة قرن ونصف القرن، فى الفترة من أوائل القرن التاسع عشر، حتى منتصف القرن العشرين، واصطلح على تسمية هؤلاء الباحثين الغربيين "بالمستشرقين" Orientalists، وهم الذين عنوا بدراسة الشرق عموماً، سواء الشرق الأدنى أو الأقصى، فى لغاته وآدابه، وحضاراته وأديانه. (٢: ٣٦٩).

والمستشرقون ما هم – فى معظمهم – بعلماء اجتماع، ولا بمؤرخين وإنما كانوا يكتفون بالتفنن والتقصى فى دراسة اللغة، وآدابها، وقضايا الفقه أو العقائد، كما أنهم لم يدرسوا الإسلام كعقيدة ذات أبعاد تطبيقية (٥١: ٤٤٥).

ويمثل **الاستشراق** فاعلاً وشاهداً فى نفس الوقت على العلاقة بين الغرب والشرق، باعتبار المستشرقين هم الذين رسموا صورة الشرق وروّجوا لها فى بلدانهم، على رغم ما شوشت به أعمال الرحالة، وهواة القصص الشعبى عليهم، عبر دراستهم الجزئية فى الزمان والمكان والموضوعات، وشاهداً باعتبار مواكبته للعلاقة التصادمية بين العرب وأوروبا، ثم أمريكا عبر الحروب والصراعات، أنه شاهد على أحداث يتهم بأنه هو صانعها.

إن الصورة التى ترسم الآن فى الرأى العام الأوروبى، حول العربى، والمسلم، والتفاعلات مع تلك الصورة بتشوهاتها وحقائقها، ما هى سوى استمرارية وشبه نسجابة للصورة التى تكونت عبر التاريخ الوسيط والحديث حول الشرق عموما، والعرب خاصة، إنها الصورة المكثفة حول العربى فى

وسائل الإعلام، وفى الدوائر السياسية والتشريعية المتخذة للقرارات، عبر المنظمات والدول، إنها الصورة التى تتخذ أشكالاً متقاربة من حيث ارتسامها فى ذاكرة المجتمعات الغربية، إذ تختزل فى أغلب الأحيان فى الإنسان الذى لا يرتبط بالحياة البشرية، بغير الخيمة، والاجتماعية بغير القبيلة وروابط القرابة، يترحل على أرض قاحلة، وسيلته فى ذلك الجمل، ومجاله قفر مكنوز بالذهب الأسود (٥١: ٤٣٣، ٤٣٤).

إن إعادة تقييم الاستشراق فى السوسيولوجيا الغربية يؤكد أن هذه السوسيولوجيا قد جنحت إلى تضخيم الأخطاء، بالخلط مع الدراسات السوسيولوجية المرتبطة بالاستعمار، كما أن هذا التقييم بقى رهين البحث فى غطائه السياسى، والأيديولوجى، وبالتالى فإن هذا التقييم استسلم إلى الدعوة **بإعدام المعرفة الاستشراقية**. لأن كافة أساليب المستشرقين، وكذلك مقولات علماء الاجتماع الكلاسيكى الذين تسلموا بعض مقاليد الدراسة عن الشرق من المستشرقين، افتقدوا أساليب المنهج السوسيولوجى العلمى حتى فى أدنى حدوده (٥١: ٤٣٩).

ومر الاستشراق بعدة مراحل، يمكن إجمالها فى ثلاث مراحل هى كالتالى:

(١) **المرحلة الأسطورية**: وهى مرحلة تشير للعصور الوسطى، وفيها طور مسيحيو الشرق خاصة "السوريون" المزاعم الباطلة عن الإسلام وعقائده، وانتقلت عن طريقهم إلى البيزنطيين، وزادت بصورة اكثر شراسة وعداوة لدى الأوروبيين، وتشكل الوعى الأوروبى عن الإسلام عموماً، وعقيدته على وجه الخصوص، فى العصور الوسطى وأثناء الحروب الصليبية، عبر الباباوات، والقساوسة، بضرورة الجهاد المقدس لتخليص "بيت المقدس" مهد المسيح من أيدى البرابرة الكفرة المسلمين، الذين يمنعون المسيحيين من الحج إلى الأراضى المقدسة، مما أدى إلى توحيد أوروبا ضد الإسلام سياسياً وجغرافياً.

ونتيجة لفشل الحروب الصليبية، أخذ "**فراسيس الأسيزى**" يبحث من خلال حماسه التبشيرى، كيف يحوّل المسلمين إلى الإنجيل، وتم إدخال تعليم اللغة العربية فى المعاهد المسيحية فى الدراسات العليا، وهنا إشارة إلى **مجمع فيينا عام ١٣١٢م**، حيث أوصى بضرورة إنشاء كراسى لدراسة اللغة العربية فى جامعات (باريس، أكسفورد، بولونيا ...) بإجماع على ضرورة معرفة الثقافة العربية الإسلامية، تمهيدا لنقدها، وتوضيح أماكن الضعف فيها، وتحذير رعايا الكنيسة من أضرار هذه الثقافة العربية، وضرورة مواجهتها. ثم كان "**بطرس المبجل**" راعى أول ترجمة لاتينية لمعانى للقرآن الكريم والذى أطلق عليه بعض الباحثين **مؤسس الدراسات الإسلامية لدى مسيحيى القرون الوسطى**، وكان صاحب حملة جدل طائشة ضد الإسلام، وانطلق من مسلمة مؤداها **(حتمية الصراع مع الإسلام**، بالكلمة والإقناع والحجة)، وقام بتوجيه رسالة للعرب يدعوهم فيها إلى المسيحية.

وقامت الدراسات الاستشراقية فى هذه المرحلة على **الإنكار التام والتشويه المتعمد لنبوة**(*) سيدنا محمد ﷺ، وهذه الدراسات خرجت من تحت عباءة **اللاهوتيين** (وتناولت النبى ﷺ اسمه وصفاته، وشخصيته، وعلاقاته بمَنْ حوله بالنقد والتجريح، ورسم صورة كاريكاتيرية عدائية مثل القول بأنه ﷺ: كان (مخادعاً، منتحلاً، كذاباً، شهوانياً ...)، وتقوم رسالته على الاختلاق والتخيل، ولا تستند على ادنى حد من الموضوعية والأمانة فى تناول فكر وعقائد المخالفين، وقد تشابهوا فى ذلك مع المشركين واليهود وقت ظهور الدعوة الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ (٢: ٣٧١-٣٨١).

(*) قالوا فى النبى صلى الله عليه وسلم العديد من الصفات، وأطلقوا عليه الأسماء، وتناولوا القرآن الكريم بما ليس فيه، ومن الصعب الخوض فى هذا تفصيلا، راجع، على سبيل المثال: أحمد عرفات القاضى، مرجع سابق، ص ٣٨٤-٣٩٠.

(٢) **مرحلة التشويه والمغالطة**: وهى فى الغالب منذ أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، فى هذه الفترة زادت النزعة العنصرية المتنامية، حيث ساعد نجاح الغرب على ظهور بعض النظريات، مثل **التفرقة** بين الشعوب على أسس الأجناس، والزعم بان الشعوب الآرية هى وحدها التى أنتجت الحضارة، ومكن لهذه النظرية مجموعة من الفلاسفة والمفكرين مثل [نيتشه، رينان] ونشأ لدى الغرب **الشعور الفوقى بالأنا**، والتى أضافت إلى **المنهج التقليدى** للاستشراق بُعداً سياسياً لم يعهده من قبل، فأصبح للاستشراق الحق فى تقرير شئون الشرق الرجعى المتخلف، والعمل على تهذيبه وحكمه. وكان أول تطبيق عملى لهذه الأفكار هو **الحملة الفرنسية**، **كما** تعالت الأصوات بإنشاء **المدارس العربية فى الغرب**، كشرط لتحقيق المعرفة الدقيقة لعقلية العرب والعقيدة الإسلامية.

وفى بداية القرن التاسع عشر، ظهر **علم الإسلاميات الأوروبية**، وللأسف من خلال هذا العلم، تم تقديم عدداً ضخماً من الأساطير والخرافات الغربية الجديدة حول الإسلام، فأضفى عليها صبغة علمية. كما أن الأغلبية المطلقة من مستشرقى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لم يخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء كان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً، أم يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية.

وقامت **الدراسات الاستشراقية** فى هذه المرحلة أيضا على الزعم بأن سيدنا محمد رسول الله نقل هذا **القرآن** عن اليهودية والمسيحية وغيرها، فى محاولة لزعزعة صحة القرآن، ومصدره، وبذلوا محاولات مستميتة، للترويج بأن القرآن ليس وحياً من عند الله، وإنما هو تأليف سيدنا محمدﷺ.

إن العداء "لمحمد" كنبى ورسول استمر فى أوروبا منذ ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى، وبدأ على يد المسيحيين الشوام منذ "**يوحنا الدمشقى**"، الذى تعد أفكاره الأسس التى اعتمد عليها الاستشراق، ولذا تكررت بقوة فى

أعمال المستشرقين قديماً وحديثاً، واستمر العداء حتى القرن التاسع عشر، أى حوالى اثنى عشر قرناً من الزمان، لذلك فإن التصورات الغربية المعاصرة حول الإسلام، لم تتكون وترتسم فى صفحة بيضاء خالية، وإنما **انعكست فى مرآة قديمة مشوهة.**

والأمر الغريب أن الدراسات الغربية حول الديانات الوضعية مثل: البوذية، والهندوسية كانت بعيدة عن أى تجريح، وتميل دراساتها إلى الموضوعية والإنصاف، أما الإسلام وحده فهو الذى يتعرض فى الغرب للنقد والتجريح على الرغم من أنه دين يؤمن بالله ويحترم اليهودية والمسيحية ويؤمن بموسى وعيسى، ويرفعهما فوق النقد بوصفهما أنبياء الله عليهم جميعا السلام (٢: ٣٩١-٣٩٨). مما يؤكد على اللاموضوعية، واللاتمييز بل والعنصرية التى غلبت على هؤلاء المستشرقين، فى هذه المرحلة، فكانت وراء تلك الأباطيل والتشويهات لدى الغرب.

(٣) **مرحلة الموضوعية**: بدأت هذه المرحلة مع بداية القرن العشرين، وفيها بدأت الدراسات الاستشراقية تتراجع فى حدتها لنقد الإسلام، ومع بداية النصف الثانى من القرن العشرين ونهاية الحرب العالمية الثانية، حدث طلاق رجعى بين الاستشراق والسياسة، وأخذت الدراسات الاستشراقية فى تسليط الضوء **على أهداف الغرب، وعنصريته فى السيطرة على الشرق** واستغلاله اقتصادياً وسياسياً ولذلك عمدت **الحكومات الغربية إلى تشويه صورة الأنظمة الإسلامية** وتصويرها فى صور مقززة، بعيدة عن نفسية المواطن الغربى، بقصد **تضليله** عن معرفة حقيقة الإسلام، والحفاظ على هويته المسيحية، كما كان هناك ارتباط بين **الرؤية الموضوعية للإسلام** فى الغرب، وبين **فترات السلام والوفاق الاجتماعى بين الطرفين... ويرجع نضج الدراسات الغربية عن الإسلام إلى التالى بعد:**

- توافر المعلومات الصحيحة عن الإسلام باللغات المختلفة.

- زال الخوف والرهبة عن أوروبا بعد أن أصبحت ذات حضارة قوية.
- دخول الإسلام فى البنية التركيبية للمجتمع الأوروبى (٢: ٤٠٦-٤٠٨).

وتعتبر أول محاضرة **تحدثت عن سيدنا محمد صلى عليه وسلم كرسول ونبى**، كانت فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر، **ألقاها** المؤرخ وفيلسوف الحضارة **"توماس كارليل"** فى أدنبره يوم الجمعة ١٨٤٠/٥/٨، وكانت المحاضرة الثانية بعنوان "البطل كرسول" – وكانت هذه المحاضرة حسب تعليق **مونتجمرى وات**، ذات أهمية خاصة فى تطوير الدراسات الإسلامية فى أوروبا، وأكدت على أن سيدنا محمد ﷺ كان مخلصاً، والعقائد الإسلامية حقيقة أساسية](٢: ٣٨٨).

ومن أهم المستشرقين فى هذه المرحلة، والذين تناولوا العقيدة الإسلامية بموضوعية: المستشرق الألمانى الكبير **"جوزيف فان اس"** عميد المستشرقين الأوروبيين فى الوقت الحاضر، **"جون اسبسيتو"** والذى له العديد من المؤلفات منها "الإسلام والطريق الواضح"، "الأصولية الإسلامية"، "التهديد الإسلامى للغرب – أسطورة أم حقيقة"، بالإضافة إلى تحريره للعديد من الأبحاث والدراسات، وكذلك **"ريتشارد مارتن"** رئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة إيموري بالولايات المتحدة، الذى له العديد من الأبحاث والدراسات، وأيضا **"جون فول"** الأستاذ بجامعة جورج تاون، وله اهتمام خاص بدراسة الشريعة الإسلامية... على كل الأحوال كان النقد فى هذه المرحلة الموضوعية، أكثر قبولاً لأنه قائم على الأدلة التى يمكن توضيح ضعفها أو قوتها (٢: ٤٠٩-٤١٣)

❖ تلك كانت بعض ملامح حركة الاستشراق التى بدأت منذ ظهور الدعوة الإسلامية وتضم خليط من اللاهوتيين، والمسيحيين، واليهود، واجتمعوا جميعا على الإساءة إلى الدين الإسلامى، والإساءة إلى رسولنا الكريم محمد ﷺ، وإلى القرآن الكريم، والسيرة النبوية، واستفحل أمرهم بشاعة فى كتاباتهم

خاصة بعد الفتوحات الإسلامية فى "الأندلس"، وكانوا وراء الحروب الصليبية وبشاعتها، وكانوا أيضا وراء الحروب الاستعمارية... إلا أن بعضاً من هؤلاء المستشرقين وخاصة بعد منتصف القرن العشرين، كانوا أكثر إنصافا للدين الإسلامى، حيث درسوا الإسلام بموضوعية، بعيداً عن التعصب، متبعين المنهج العلمى والرجوع إلى الأصول فى دراساتهم، وأقر بذلك عدد كبير من علماء مقارنة الأديان فى الغرب، وأرجع بعضهم هذا التعصب وذاك العداء للإسلام، إلى **الكراهية والخوف من ظهوره**، خاصة بعد التحدى الذى حققه منذ القرون الأولى عندما اتسعت فتوحاته وازدهرت حضارته الإسلامية.

أما عن الإسلام فى بعض دراسات المستشرقين، فقد تطور هذا النوع من الدراسات عن الدراسات الاستشراقية التى تقدم صورة للحضارة العربية الإسلامية، باعتبار أن الاستشراق مهمة المؤسسة الأكاديمية الغربية القديمة، التى أسستها السلطة الغربية، وانطلقت من منطلقات فلسفية ودينية وسياسية، وتشكلت بحسب الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية، وتقدم مادة علمية يستخدمها ويعمل عليها الدارسون الاجتماعيون المرُوّجون **لصورة مقلوبة سلبية** لدى الجماهير، وبذلك لم توف هذه الدراسات بما وُكِلَ إليها من مهام، مما أدى إلى ظهور ما يعرف بدراسات المناطق Area Studies، فكانت هناك الدراسات الاجتماعية، حيث يقبل الدارسون على دراسات مناطق معينة، يستعين فيها الدارسون بما ورثوه من الدراسات الاستشراقية، إلى جانب الاستعانة بأدوات وتقنيات العلوم الاجتماعية الحديثة، مع التركيز على دراسة الحاضر. ورغم أن هذه الدراسات تحاول أن تقدم نفسها فى صورة أكاديمية موضوعية رصينة، على نهج الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية، إلا أنها توصلت إلى العديد من النتائج التى تصور المجتمعات الإسلامية بصورة لا تخلو من السلبية، مما جعلها تقدم المادة العلمية الضرورية، لبروز ما يمكن أن يسمى **بالدراسات الموجهة للجمهور المتعلم والمثقف، والتى تصور العرب والإسلام بصورة شديدة**

الإجحاف، والضرر بالمسلمين، ولعل ما يؤكد هذه الصورة السلبية ما قاله كل من: [رفائيل باتاى، جون ليفن، توماسى كرنيان].

[١] روفائيل باتاى(*) وقد قام بوصف العقل العربى بالجمود فى كتابه المعنون "العقل العربى"، وقدم العقل العربى فى صورة توضح أن هدف العربى هو تدمير الحضارة الغربية، وأنه إنسان متخلف وحاقد وغشاش وجنسى وعنفوى، وذلك بفعل تنشئتة الأولى التى استهدفت تلبية رغبات الطفل، وعندما كبر أصبح يلتبس عليه الأمر فى التفرقة بين القول بالكلمات، والفعل، وأن العرب يتأثرون بالقيم والمعايير والشيم البدوية، ووصفها بأنها قيم فجة تقوم على العنف والهدم والقتل والغزو، وأن العربى لا يردعه عن القيام يعمل ما، سوى ما يتعرض له من ازدراء واحتقار ان عَلِم الناس بما عمل، ولا توجد أخلاق أو قيم كامنة فى ذاته تردعه. وأن الإسلام لعب دوراً فى تشكيل المجتمع العربى، وخاصة فيما يتعلق بالغرب، حيث قسم العالم إلى دار الحرب، ودار الإسلام، ويستثمر "باتاى" هذه المقولة ليؤكد أن المجتمع العربى يكره الغرب ويسعى لتدمير الحضارة الغربية.

ويرى أنه للغة العربية تأثيراً على العربى وهى لغة غير دقيقة فى ألفاظها، وتخلو من نظام تصريف زمنى للفعل، وهى لغة بلاغة تميل إلى المبالغة، والتأكيد، والتكرار، مما يجعل العربى يستعيض بالكلمة عن الفعل، ولذلك فالعربى لا يقوم بفعل ما يقوله، إذ أن قوله – هو نهاية الأمر، ويرى "باتاى" أن اللغة العربية، والقيم البدوية، أدت إلى بروز ظاهرة المؤتمراتية بينهم، بحيث أن كل ما يقولوه ليس بالضرورة أن ينتهى إلى حل جذرى لأمر ما، ولكن على نظام شيخ القبيلة، المهم أن يقول كل فرد ما يريد قوله، وحل

(*) روفائيل باتاى: يقدم نفسه للعالم على أنه عالم أكاديمى - وهو من المجر، ويدعى أنه تتلمذ على أيدى كبار المستشرقين وحصل على الدكتوراه الأولى عن (العرب والإسلام)، ثم حصل على دكتوراه من الجامعة العبرية قبل تقسيم فلسطين، عن الثقافة والدراسات الانثربولوجية فى منطقة الشرق الأوسط.

الخلافات بينهم إنما هو توفيقى سطحى شكلى، وأن العرب ليس لديهم وسطية، فهم متطرفون عنفويين ولا يميزون بين مستويات العقل الثلاثة [الأفكار – الكلمات – الأشياء]، كما أن العرب جامدون غير ميالين للتغير، يعيشون فى أمجاد الماضى، ويكرهون الغرب، ويسعون إلى تدميره، وهم دائما يختلفون مع الغرب فى الاستراتيجية، وليس لتقبله أو التعايش معه، ناهيك عما وصف به العرب على الجانب الجنسى.

[٢] "**جون ليفن**"، من أهم ما كتبه (**العقل العربى**)، (**خنجر الإسلام**): ويرى "**جون ليفن**" أن العرب كانوا فى الماضى شعبا ذكيا نشطاً، ولكنه أصبح فى الحاضر دون قيادة، مضطرباً، مشوشاً، فاتر الشعور، لامبال، ويقول أن هذا ليس تشهير، بل هو تحذير للعالم الغربى، حتى يعملوا مجتمعين على إرجاعهم إلى الصواب والحق، كما يصف العرب بأنهم عبيد عاداتهم وتقاليدهم البدوية، نفس ما قاله "باتاى" فهو على نفس النهج، ويضيف أن اللغة العربية والأدب العربى تركا تأثيراً سلبياً على العقلية العربية، بتكرارها وتأكيدها وخيالها السطحى، جاعلاً العرب يميلون إلى الكلام بدلاً من الفعل، وأكد مقولة "باتاى" بأن المجتمع العربى" مجتمع عار "Shame Society" يميل إلى حفظ ماء وجهه، وأن يظل محتفظاً بصورة خارجية براقة، وما عدا ذلك لا يهمه، وأن العنف هو وسيلة العرب للتعامل مع الآخرين، وفى كتاب "خنجر الإسلام" وصف العربى بأنه سفاك محب للدماء، قاسى، نذل، غشاش، جنسوى، يعامل الأقليات معاملة غير إنسانية، على اعتبار أنهم ذميين أقل منه، وأن العالم الإسلامى يتواطأ مع الاتحاد السوفيتى – سابقا – لتدمير الغرب والحضارة الإنسانية، ناهيك عما قاله أيضا عن العربى، والجنس والمرأة.

[٣] توماس كرينان(*) ومن أهم كتبه "العرب"، ويدعى أنه قام بزيارة للعديد من الدول العربية، ليزاوج بين التاريخ ومشاهداته الطبيعية، وفى وصفه للعرب قال عنهم:

إن العرب إباحيون، والجنس عندهم وسيلة لبعض أغراضهم، إضافة إلى العنف والقتل والسرقة، ويقتلون بناتهم خوفاً من العار، وقتل وتعذيب أعدائهم، وأن قسوة العرب تعبر عن نفسها بصورة لا شخصية، ودون أى تفكير ظاهر، أو تدبير مسبق، إنها "آلية انعكاسية"، وأن العرب يخططون ليسيطروا على العالم، بما حصلوا عليه من أموال النفط، وذلك بشراء المؤسسات الصحافية، والإعلامية، والأسلحة، والبنوك، والبورصات، وأن العرب الذين يعيشون فى أمريكا، خطط لهم أن يهاجروا قبل سنوات ليقوموا بهذه المهمة!! (٧: ٢٢٠-٢٣٦)

❖ **وهكذا اتفق المستشرقون الثلاثة، على وصف العرب والعالم الإسلامى بصفات مجحفة تتسم بالأباطيل منها:**

- التأكيد على البداوة واعتبار العرب بدو متخلفين، ووصفهم بالعنف والقتل وسفك الدماء.
- وصف المجتمعات العربية بالهمجية، والتخلف، والجهل، وعدم الرغبة فى التغيير أو التقدم.
- تقديم صورة سلبية للإسلام، ركزت على أمية المرأة المسلمة، وتعدد الزوجات، ووصفت المرأة بأنها ذات مكانة متدنية. ناهيك عما وصف به العرب والمسلمين، من الناحية الجنسية وسلوكياتهم فى مجتمع وصف بمجتمع العار.

(*) يقدم كرينان نفسه كمؤلف للعديد من الكتب والدراسات، عن الثقافة العربية والثقافة الإسرائيلية. وتعلم فى أرقى الجامعات الأمريكية.

إن مثل هذه الافتراءات المغرضة، تستهدف النيل من العرب عامة، وتشويه صورة المسلمين خاصة، ووصفهم بما يتنافى مع العقيدة الإسلامية والثقافة العربية، بما تتضمن من قيم وتقاليد وعادات ... وإنما هى **بروتوكولات صهيونية معكوسة**، استبدل فيها اليهود بالعرب، ولعل فى هذا تأكيد على مدى إدراكهم لبشاعتهم، وخداعهم لمَنْ حولهم، وفى نفس الوقت **يؤكد على التالى**:

- الحقد على الإسلام فى حد ذاته كدين ذو مقومات ذاتية عظيمة وخالدة.
- الحقد على المسلمين وما حباهم الله به من نعمة الإسلام.
- المحاولة الدائمة لإضعاف المسلمين، ووصفهم بالجمود، وعدم الرغبة فى التغير والتقدم، وأنهم متخلفون، لن تقوم لهم قائمة إلا بربطهم بالغرب.
- الرغبة الجامحة فى الاستيلاء على ثروات العرب، وخاصة النفط والثروات المعدنية، والطبيعية، ليكن لهم القوة والهيمنة على المسلمين.
- محاولة النيل من ثقافتنا العربية الإسلامية، والإساءة إلى لغتنا الجملية لغة القرآن، فهى من أهم عناصر ثقافتنا العربية الإسلامية.
- دعوة صريحة معلنة وإثارة (الآخر) للانقضاض على بلاد المسلمين، بوصفهم مجتمعات عنف وتخلف وحقد، بل ونجحوا فى نسب أحداث ١١ سبتمبر – دون دليل – للمسلمين، وبالفعل اجتمع الغرب كله تقريباً وللمرة الثانية فى مواجهة المسلمين، وبدأ بأفغانستان، واليوم فلسطين وغدا العراق ... .

- وفى مقابل دراسات المستشرقين وكتاباتهم عن العرب والمسلمين فهناك دراسات وبحوث عربية تمت فى دراسة الاستشراق، منها فى هذا السياق على سبيل المثال ما يلى:

(١) **دراسة القاضى** (٢: ٣٦٩-٤٢٢): والتى استهدفت البحث فى موقف المستشرقين من العقيدة الإسلامية ككل، عبر مراحل تطور الاستشراق، والتى

صنفها إلى ثلاث مراحل: الأولى "الأسطورية، والمرحلة الثانية هى مرحلة "المغالطة والتشويه"، والمرحلة الثالثة هى مرحلة الموضوعية، وهذه المرحلة الأخيرة بدأت مع بداية القرن العشرين، وهى بعدت كثيرا عن التشويه والعنصرية، وأشارت الدراسة إلى خطورة **السلبيات الموجودة فى تراثنا** والتى يأخذها الغرب علينا، ويعتبرها مبرراً لنقد عقيدتنا، وتوصى الدراسة بضرورة التواصل ومتابعة الدراسات الاستشراقية، والاقتراب منها، وتوضيح حقيقة الإسلام، وبذل الجهد لتفنيد الأفكار التى رسخت عبر قرون طويلة فى فكر المواطن الغربى، كما أوصت الدراسة بضرورة إنشاء مراكز بحثية خاصة، ومعاهد لمتابعة أعمال المستشرقين وترجمتها، وتصحيح الأخطاء بها، وتكتب لهم بلغاتهم لتفنيد أى مزاعم باطلة.

(٢) **دراسة الشرقاوى**: (٤٥: ٣٤١-٣٦٨): واستهدفت البحث فى موقف المستشرقين من الإسلام فى كتابات علماء مقارنة الأديان الغربيين، حيث مكانه الإسلام مقارناً بالأديان الأخرى، انطلاقا من أهمية ذلك لنا كمسلمين، وأيضا للعلماء الغربيين الموضوعيين، مما يساعد على تحسين صورة الإسلام فى الغرب، وتخفيف العداء تجاهه، وتمحورت الدراسة حول عدة محاور تضمنت التالى:

- صورة الإسلام كما رسمها المبشرون والمستشرقون.
- صورة الإسلام كما رسمها علماء مقارنة الأديان الغربيين.
- اعتراف علماء مقارنة الأديان **بتعمد الغرب تشويه صورة الإسلام**، وحدد من هؤلاء العلماء المنصفين للإسلام [هيوستن سميث Smith، اريك شارب Eric Sharp، أرمسترونج Armstrong] وكشفت هذه الأخيرة فى أحد فصول كتاب لها بعنوان "محمد العدو" بالتفصيل عن التشويهات الغربية المتعمدة للإسلام، والرسول محمد ﷺ، والحضارة الإسلامية.

- كما تتناول قضايا أخرى مثل موقف الإسلام من المرأة، الانتشار السريع والمذهل للإسلام، – لماذا لم يعتنق العرب المسيحية، – حرية الإنسان فى الإسلام.
- وتوصلت الدراسة إلى أن علماء الأديان المقارنة الغربيين – الذين حددهم – رغم تفاوتهم فى اجتهاداتهم وأطروحاتهم، إلا أنهم اتفقوا أحيانا كثيرة، على الرغم من أن كتاباتهم كانت للمواطن الغربى، واعترفوا أن الإسلام وصورته المتمثلة فى القرآن، تمثل التعبير الأكثر نقاءً للتوحيد المطلق.

وأوصت الدراسة بضرورة الاستفادة من التوصيات والملاحظات والعلاقات والنتائج التى انتهى إليها هؤلاء العلماء، لتساعدنا فى تقيم فهمنا لجوانب معينة فى ديننا، وفهم أنفسنا فهماً نقدياً بناءً.

(٣) **دراسة سامى نجيب**: (٢٢: ١١-١٢) استهدفت البحث فى الاستشراق، والتغريب، والتنصير، والعلاقة بينهم، كمحاور متداخلة تستهدف تشويه الإسلام، وتناولت الاستشراق بمفهومه، وتأثيره على نظرة الغرب إلى الإسلام، من خلال الدراسات المقدمة والتى اعتمدت على الطعن والتشكيك فى الإسلام، وقامت الدراسة على ستة محاور هى:

- عرض نماذج للفكر الاستشراقى التنصيرى والتى استهدفت **الطعن فى رسول الله ﷺ**.
- التغريب وأثره فى **تشويه الإسلام**، كبوق يردد أفكار المستشرقين داخل البلاد الإسلامية.
- العلاقة بين الاستشراق والتنصير، ومساندة كل منهما للآخر.
- حوار الأديان، واعتبرته الدراسة أسطورة، وأن حوار الحضارات، ما هو إلا غطاء، **لصدام الأديان**، الذى هو امتداد للفترة الزمنية الأولى للرسالات

السماوية، وإثباتاً لذلك استعرضت الدراسة تخطيطاً للنصرانية على المستوى العالمى.

(٤) **دراسة صابر أبازيد** (٢٤: ٣٨-٣٩): استهدفت هذه الدراسة البحث فى دور الاستشراق فى تشكيل فكر الغرب عن الإسلام، وحاولت الدراسة الإجابة عن عدة تساؤلات، تدور حول الاستشراق، وما إذا كان يختلف قديماً عنه حديثاً، وما الدور الإيجابى، والسلبى لموقف الغرب من خلال كتابات المستشرقين، وما دور المسلمين أمام تيار الاستشراق الزاحف، والهيمنة الأمريكية، وأشارت الدراسة إلى أن الاستشراق الحقيقى لم يظهر إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، وإن كان قد ارتبط بشكل أو بآخر بالتبشير أو كانت له أسبابه الدينية أو التجارية أو السياسية الاستعمارية، وأكدت الدراسة على أن مصنفات "يوحنا الدمشقى" ٧٤٩م، هى محاولة من محاولات بداية الاستشراق، وأن الغرب النصرانى **يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمى بصدور قرار مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م** أى بداية القرن الرابع عشر الميلادى، وكشفت الدراسة من خلال اتباعها المنهج التاريخى التحليلى النقدى، أن هناك صراعات قديمة لها أثرها على سوء فهم الإسلام يجب أن تزول، وكذلك وجود تحديات عصرية يجب مواجهتها، وأن هناك جماعات ضغط صهيونية يهودية، رسمت معالم سوء فهم صورة الإسلام، يجب ردها.

(٥) **دراسة محمد نجيب** (٥١): التى استهدفت الوقوف على بعض الجوانب الخفية والمعلنة فى العلاقة بين حركة الاستشراق وبين العلوم الإنسانية، أى العلاقة بين الاستشراق الحديث (فى القرن التاسع عشر)، وبين العلوم الإنسانية والاجتماعية، التى شاركته وتقدمت عليه فى وضع أنماط للمجتمعات والتاريخ البشرى والحضارات، وقدمت الدراسة طرحاً جزئياً للعلاقة بين علم الاجتماعى والاستشراق. مؤكدة أن كليهما ينهل من الثقافة، ويتشبع بالأفكار التى يروج لها عصره. وأشارت الدراسة إلى أهم المحددات النظرية والأيديولوجية وراء

النظرة الأوروبية للآخر، هى: **المركزية الأوروبية** التى بدأت بشعور الغرب بالنقص أمام الشرق، ثم الإعجاب بالشرق، مع الخوف منه، وانتهت بالجدية فى إسباغ السمات السلبية على الشرق، ونعته بالتخلف والاستبداد "كذلك أشارت الدراسة إلى الرسالة التمدينية Mission Civilisatrice التى انطلقت كمبرر أيديولوجى لبدايات أزمة الرأسمالية التقليدية، وارتبطت بشكل جلى بالاعتبارات الدينية، ونشر المسيحية ومقاومة انتشار الإسلام، ووصفوا الاستعمار بأنه تدخل المدنية فى الشعوب البربرية، واعتبرت أوضاع الشعوب الإسلامية معرقلا للتقدم البشرى، وهذا ما جعل الرأى العام الأوروبى يجند ويعبئ من أجل التهيئة للاستعمار، وارتبطت فكرة الرسالة التمدينية بحركة الاستعمار تلك الفكرة التى مهد لها الاستشراق التقليدى، وجسدها الاستشراق الاستشارى، وكذا علم الاجتماع الاستعمارى.

واهتمت تلك الدراسة بالوقوف على جوانب العلاقة بين [المستشرق، عالم الاجتماع]، من خلال نموذج عالم الاجتماع الألمانى "ماكس فيبر"، كأحد الرواد الكلاسيكيين الذين وضعوا مرتكزات المقارنة، وصاغوا المفاهيم التحليلية حول (الأنا، والآخر) أى [الغربى/ الأوروبى]، [الشرقى/ العربى الإسلامى].

وتوصلت الدراسة إلى أن مناقشات "فيبر" حول الإسلام من ١٨٦٣-١٩٢٠، استندت إلى خلفية استشراقية واضحة، رغم أنه **لم يخص الإسلام بدراسة**، فقد كان الإسلام غائبا فى أعماله، وخاصة الأولى، وكان هناك نقص فى التصنيف التاريخى الاجتماعى للإسلام عند "ماكس فيبر"، وأنه تأثر بالفرضيات الاستشراقية.

ومن الصور والأفكار والتبريرات التى خرج بها "ماكس فيبر" متأثرا بفرضيات المستشرقين ما يلى:

- تدهور العالم الإسلامى وبناه الاجتماعيـــة، ونظمـــه السياســية المتصفــة بالاستبداد.
- ارتباط الدولة الدينية بالأفراد، وتحكمها فيهم وفى سن القوانين، ويـــرى أن بنية الدولة الإسلامية، وتركيبة موظفيها، وقوانينها، وأجهزتها التى كـــانت مشروطة دينيا، هى العائق أمام التطور والتصنيع.

ويرى "ماكس فيبر" إن ركود العالم الإسلامى، إنما هو نتيجـــة لتحكـم الإقطاعيين الشرقيين عبر شرائح عسكرية تتميز علاقتها بالســلطة المركزيــة، وبالتضارب والصرع على الجباية، وأن عجزها فى التوسع والغزو، أدى إلـــى العجز فى دفع رواتب الجيوش، والموظفين فى الدول بالشرق.

وأكدت الدراسة أن "ماكس فيبر" أحد علماء الاجتماع، اكتفى بـــالرجوع إلى جزء من مبحث "الإسلاميات" عند بعض المستشرقين فى عصـــره، هـــؤلاء الذين يخلطون بين الإسلام واليهودية من جهة، والوثنية من جهة أخرى، كذلـك توصلت الدراسة إلى أن الغزو الاستعمارى للمنطقة العربية، استمد حركته مـــن وعى موروث من القرون الوسطى، وعى يقوم علـــى أســس انفعاليــة لتمثـل الإسلام، وهو تمثيل مجبول أساساً بالعداوة، وهذا **الوعـــى المشـــوه للإســلام والعرب**، أدمج فى القرن العشرين، رغم بعض التعديلات، ووظف فى حركـــة الاستعمار وتكريس التبعية ... إلا أنه استمراراً للمواقف المتحاملـــة، وملامـــح العدائية، لا يمكن تحميلها لأفراد، وإنما إلى **منظومة حضارية اجتماعية سياسية إعلامية**، يساهم الأفراد فى صياغتها، ويمكن لهؤلاء أن يتمردوا على النظـــام، ولـــو معرفيـاً، مثلمـــا تمـــرد كـــل مـــن "بـــارك"، و"رودنســـون"، "غارودى"... (٢٧: ٤٣٣-٤٤٨).

وعقب انتهاء الحرب الباردة، وسقوط حائط برلين، وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم بوصفها القطب الأوحد، ظهر فى الأفق مفاهيم ومصطلحات عديدة، نادى بها مفكرو الغرب، من منطلق الغرور والاستعلاء بالقوة

والغطرسة والعداء للإسلام، والرغبة فى الهيمنة، خاصة على دول المسلمين لاستنزاف ثرواتهم ومقدراتهم.

ومن هذه المفاهيم: [ما بعد الحداثة، نهاية عصر الحداثة، التفكيك، العولمة، نهاية التاريخ، صدام الحضارات...] وكلها مفاهيم مُغرضة، وغير بريئة تستهدف ثروات الشعوب النامية وثقافتهم، وخاصة الثقافة العربية الإسلامية.

ويتناول هذا الكتاب **أهم تلك المصطلحات التى طرحت فى نهاية القرن العشرين، وهى "نهاية التاريخ"، "صراع الحضارات"**، ذلك الصراع الذى جاء للنطق بما كان عليه سلفاً وتحويل العالم إلى دوائر حضارية متجاورة ومتصارعة على مستوى الثقافات، لإخفاء الصراع حول المصالح والثروات، وإلهاء الشعوب الهامشية بثقافاتها التقليدية، بينما حضارات المركز تجمع الأسواق، وتتنافس فى فائض الإنتاج عوداً إلى النغمة القديمة، مادية الغرب، وروحانية الشرق، والحضارة اليهودية المسيحية فى مواجهة الحضارات الإسلامية، والبوذية الكنفوشية. (١١: ٣٤٤).

ثانيا: الإسلام فى بعض الأطروحات الفكرية الغربية

[١] أطروحة فرانسيس فوكوياما "نهاية التاريخ"(*)

افترض "فوكوياما" فى أطروحته هذه، والتى بعنوان "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" افترض توقف التاريخ، وما يتسم به من تطور بشرى فى مجالات الحياة، وأن التاريخ سيقف عند النموذج الليبرالى الغربى، وعلى العالم كله أن يتبع قيم هذا النموذج، لأن الحضارة الغربية حققت ما وصلت إليه من نجاح وازدهار مادى، بفضل انتهاجها الليبرالية، والديمقراطية الغربية، وهى

(*) فرانسيس فوكوياما هو مفكر يابانى الأصل امريكى الجنسية يعمل خبيرا بمركز البحوث التابع لوزارة الخارجية الأمريكية، وبدأت هذه الأطروحة كمقال نشر فى مجلة "المصلحة القومية الأمريكية" متبوعا بعلامة استفهام، ولكن حين حوله إلى كتاب أسقط علامة الاستفهام، وترجم الكتاب إلى (١٣ لغة) بعنوان "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"، عام ١٩٩٣.

غاية المنتهى للشخصية الإنسانية (٣٣: ٢٥، ١١٢)، **ويرفض فوكوياما الدين**، ويرى أنه فى **العلمانية** السبيل للتحرر من الدين وقيوده، وحتى لا يكون بتدخل الدين فى الحضارة الإنسانية سبيلا لإعاقة الشئون السياسية أو الديمقراطية (٣٣: ٢٠٥-٢٠٧)، بما يفرضه الدين من أحكام أخلاقية وقيم يفترض الالتزام بها (٣٣: ٢٢٠)، ويرفض فوكوياما القيم المطلقة والثابتة، وينادى بالنسبيّة، لأنه يرى أنه لا يوجد شيء ثابت ولا مبادئ مطلقة، حتى وأنه يعتبر التضحية من الأشياء المذمومة، وعليه فإن الحضارة الغربية تؤمن بالنسبيّة، وتقوم على الحرية الفردية وترفض الدين. ورغم هذا الرفض للدين فإن فوكوياما يعترف بان **الدين الإسلامى يشكل نظاما أيديولوجيا متماسكا وله نظامه الأخلاقى، ونجح فى هزيمة الليبرالية الغربية فى بلدان كثيرة** من العالم الإسلامى، ولم ينجح فى الغرب (٣٣: ٢٨٤-٢٨٥)، فبعيدا عن البلاد الإسلامية قد يكون الفرد أكثر تعرضاً لليبرالية الغربية، التى نجحت بالفعل فى التأثير على الكثيرين فى العالم الإسلامى، وقد يصبحون مصدر تهديد للمجتمعات الإسلامية نفسها (٣٣: ١١٧)، ولذلك فإن الحضارة الغربية تحصر الإسلام فى نطاق انتشاره التاريخى، بل وتهدد مقاومته وثقافته، وتقدم نموذجاً آخر للتجديد والتحديث – مثل الذى اعتنقته تركيا – ولهذا فإن فوكوياما يثنى على تركيا وتجربة "مصطفى كمال أتاتورك" بوصفها الليبرالية الديمقراطية الوحيدة فى العالم المعاصر، وبعد أن كانت تركيا إمبراطورية إسلامية وضعت موروثها الدينى جانبا لصالح مجتمع علمانى (٣٣: ١١٠).

ويقر فوكوياما بأن إنسان الحضارة الغربية هو "الأخير"، باعتبارها آخر الحضارات، وبعدها يتوقف التطور التاريخى، حيث نقطة النهاية للتطور الأيديولوجى للبشرية، وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية، على مستوى العالم كشكل نهائى للحكومة الإنسانية، ثم يشير فوكوياما نتيجة لذلك سيحدث بعض الصراعات فى أماكن من العالم الثالث، ولكن الصراع الكبير قد انتهى حتى فى

العالم غير الأوروبى، حيث حدثت التغيرات الكبرى فى الصين، والاتحاد السوفيتى وانتهت حرب الأفكار، وقد يظل المؤمنون بالماركسية اللينينية موجودين فى بعض الأماكن، ولكن الديمقراطية الليبرالية الشاملة قد انتصرت، وسوف يكون المستقبل مكرساً لحل المشكلات الاقتصادية، وليس صراعات حول الأفكار. (٢٥: ٥١).

❖ **وهكذا أفصحت** أطروحة "فوكوياما" عن الغرور والاستعلاء والغطرسة، ولكن الخوف من المد الإسلامى الكامن فيها ويتجلى بين ثناياها، اتضح فى التأكيد على العلمانية والهروب من الدين بقيمه ومبادئه المطلقة، فتدعو إلى النسّبية، والحرية المطلقة بعيداً عن قيود الدين، ولهذا فإن هذه الأطروحة تدعم الكيد للإسلام والتآمر عليه، سواء فى بلادهم أو فى بلاد الإسلام، ومحاولة حصر الإسلام فى نطاق انتشاره التاريخى، وجعله ضعيفاً منهكاً، لذلك كانت هناك الإبادة الجماعية فى الدول الإسلامية فى أواخر القرن العشرين، شرسة ودامية، فمن ينسى مذابح المسلمين وإبادتهم فى البوسنة، الشيشان وكوسوفا، ومؤخراً فى أفغانستان والعراق، وقبلها وبعدها فلسطين ...، إنه التآمر بأساليبه المختلفة على المسلمين، ومَنْ لم ينجحوا فى إخراجه من الإسلام إلى العلمانية كتركيا، فليتبوأ مكانه وسط الدمار والمجازر والإبادة، **أنها أطروحة عكست الخوف من الإسلام، والتآمر عليه، وحصره ومصارعته فى عقيدته وقيمه.**

وسرعان ما عاد "فوكوياما" عن أطروحته مجبرا تحت وطأة الانهيار الذى أصاب المجتمعات الغربية، وجاء ذلك فى كتابه بعنوان "**الانهيار العظيم**"، وعدد فيه مظاهر هذا الانهيار من: ضعف العلاقات الأسرية، الإفراط فى الفردية، ضعف الثقة فى المؤسسات الاجتماعية، بسبب انفصال الجانب الروحى عن الجانب المادى، فى الحضارة الغربية التى قامت على العلمانية، فظهر الخطر والانفلات، وتعددت المشكلات، وزادت معدلات الجريمة والعنف

والمخدرات، وأجبرت الإحصاءات "فوكوياما" على الاعتراف بهذا الانهيار لحضارة روج لها أنها "نهاية التاريخ"، ورغم هذا الانهيار يرفض التراجع عن ادعائه وترويجه للعلمانية، ويقول بأن الجنس البشرى مدفوع بطبعه إلى إيجاد القواعد الأخلاقية والنظام الاجتماعى لنفسه، وأنه لديه من الموارد الأخلاقية الفطرية ما يجعله ينتصر على مشكلاته، ولذلك فإن الناس لم يأخذوا الدين مأخذ الجد، لأنه يرى أن العلمانية هى أهم مقومات الحضارة الغربية. (٢٨: ٤٢٦).

وبعد سنوات من الترويج لهذه الأفكار ولأطروحة "نهاية التاريخ"، وما أفصح عنه "الانهيار العظيم"، عاد "فوكوياما" ليروج للديمقراطية الحديثة، ويعتبرها نسخة علمانية للمبدأ المسيحى، فى المساواة الإنسانية عالميا، وان القيم الغربية هى تجسيد لمسار عالمى أكبر، وأن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التى لها مشاكل مع الحداثة، وأن الحركات الأصولية ترفض مبدأ التسامح الدينى، ولكنه يناقض نفسه فى هذا الاتهام، حين يعترف بأن الإسلام قد تعايش مع المذاهب المختلفة بسلام فى ظل الدولة العثمانية، فى وقت كانت أوروبا فيه ممزقة، بفعل الحروب الدينية، وينظر "فوكوياما" إلى الأصولية بأنها ذات خطر، وأكثر تحديا من الخطر الشيوعى(*) ويعزو **ظهور الأصوليات إلى عدة أسباب منها:**

- الدعوة إلى العودة إلى الإسلام التى تشرح للمسلمين آثار خسارة القيم الدينية فى المجتمعات الحديثة.
- تبنى السعودية للحركة الوهابية والدعوة السلفية.
- سياسات السلطات الحاكمة، الفقر، أسباب اقتصادية.

وتعلن هذه المقالة فى مضمونها عن فداحة العداء للإسلام، وأن مساحة الصراع ليست فى دولة بعينها، بل هى فى دول العالم الإسلامى كله، ولا يقيم

(*) ورد هذا فى مقال "لفوكوياما" بعنوان "العدو الحقيقى هم الأصوليون الإسلاميون، وهم الفاشيون فى العالم الحديث" ونشر المقال فى العدد السنوى من مجلة النيوزويك فى ديسمبر عام ٢٠٠١ – فبراير ٢٠٠٢ ونشر ترجمته فى العدد العربى الصادر فى ٢٠٠١/١٢/٢٠.

فوكوياما أى اعتبار لخصوصيات العالم الإسلامى، لأنها جميعا تمكن الإسلام من المقاومة المستمرة لمحاولات تغريبه، والقبول بالعلمانية، وحتى يجعلوا العالم الإسلامى جزء من الحداثة الغربية. (٣٩: ٥)

ويرى "فوكوياما" أن الصراع ضد الراديكاليين الإسلاميين والمسلمين الذين يتجاوز انتمائهم الدينى جميع القيم السياسية الأخرى، يقدر المختصون – كما يقول "فوكوياما" – عدد هؤلاء يصل (١٠ – ١٥%) من العالم الإسلامى، وأن بحر الفاشية الإسلامية الذى يسبح فيه المتطرفون المسلمون، **يشكل تحدياً أيديولوجياً أكثر خطورة من الشيوعية**، وليس هناك من سبيل لهزيمة هؤلاء الأصوليين، إلا بالقوة العسكرية وتحويل بلادهم إلى أنقاض كما فعل الغرب الليبرالى فى ألمانيا النازية. وهكذا يرى "فوكوياما" أن الحل الوحيد للقضاء على الإسلام، وقيادة العالم إلى العلمانية، ليعيشوا فى سلام فى ظل الحداثة العلمانية هو تدمير المسلمين بالقوة العسكرية. (٤١: ٥).

❖ ولن يقف العداء للإسلام عند هذا الحد البشع، والذى فى حد ذاته يهدم معنى الحرية والديمقراطية، ولكن فى الحقيقة هى [حرية مَنْ؟ وعلى حساب ماذا؟، والديمقراطية لمَنْ؟] وليتأكد أن الحضارة الغربية القائمة على العلمانية هى فى جوهرها فى عداء للدين وخاصة الإسلام – باعتراف مفكريها – الذى يمثل تحدياً أمامهم، لذلك فهم لا يرون حلا إلا الصراع مع الإسلام ومقاتلته، وإبادة المسلمين... وجاء هذا متفقاً مع أطروحة صاموئيل هنتنجتون القائلة بصدام الحضارات، بل دعمت كلتا الأطروحتين هذه الآراء وتلك المشاعر العدائية للإسلام.

[٢] أطروحة صامونيل هنتنجتون "صدام الحضارات"(*):

افترض "صامونيل هنتنجتون" فى أطروحته التى أعلنها بعنوان "صدام الحضارات" أن البعد الرئيسى والأكثر خطورة فى السياسة الكونية، سيكون الصدام بين جماعات من حضارات مختلفة، وأن نظاماً عالمياً يقوم على الحضارات هو الضمان الأكيد ضد حرب عالمية، وأن الثقافة، والهويات الثقافية، هى التى تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع فى عالم ما بعد الحرب الباردة (٢٥: ٧١، ٣٧)، ويرجح "هنتنجتون" أن العلاقات بين الدول والجماعات غالباً ستكون علاقات عدائية، وهناك أخرى أكثر عرضة للصراع من غيرها. ويرى أنه على المستوى الأصغر، ستكون أشد خطوط التقسيم الحضارى عنفاً، هى تلك الموجودة بين الإسلام وجيرانه الأرثوذكس، والهندوس، والأفارقة، والمسيحيين الغربيين، أما على المستوى **الأكبر**، فإن التقسيم السائد هو بين الغرب، والآخرين، وأن أشد الصراعات القائمة هى بين المجتمعات الإسلامية وبعضها من جهة، **والمجتمعات الإسلامية والغرب** من جهة أخرى، ومن المحتمل أن تنشأ أخطر الصراعات فى المستقبل، نتيجة تفاعل (الغطرسة الغربية، والتعصب الإسلامى، والتوكيد الصينى)، تلك هى صلب الفرضية التى تقوم عليها أطروحة "هنتنجتون". ويعتقد "هنتنجتون" أن المشكلة الرئيسية فى العلاقات بين الغرب والباقى، وهى التنافر من جهود الغرب - وخاصة أمريكا - لنشر ثقافة غربية عالمية، وانخفاض قدرته على تحقيق ذلك، وقد زاد سقوط الشيوعية من هذا التنافر، بأن قوّى فى الغرب النظرة إلى أن أيديولوجيته الليبرالية الديمقراطية، قد انتصرت كونياً، وبالتالى أصبحت صالحة لتعميمها عالمياً، وكان الغرب وخاصة الولايات المتحدة يعتقد أن الشعوب غير

(*) صامويل هنتنجتون: أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، ومدير مؤسسة الدراسات الاستراتيجية، وصاحب كتاب "صدام الحضارات"، وبدأت هذه الأطروحة فى شكل مقال بنفس العنوان يسبقه علامة استفهام فى مجلة الشئون الأجنبية Foreign Affairs، وأثارت المقال جدلا استمر ثلاث سنوات، ثم جاء كتاب صدام الحضارات ليقدم إجابة موثقة عن سؤال المقال.

الغربية لابد أن تلتزم بالقيم الغربية فيما يتعلق بـ[الديمقراطية، الأسواق الحرة، الحكومة المحدودة، الفردانية، حقوق الإنسان، حكم القانون] وأنها لابد وأن تجسد تلك القيم، فى مؤسساتها، ولكن التوجهات السائدة نحو هذه القيم، تتراوح بين الشك فيها على نطاق واسع، والمعارضة الشديدة لها، وما يعتبره الغرب عالمياً، يعتبره الباقى استعمارياً (٢٥: ٢٩٣).

ويضع هنتنجتون احتمالية نشوب حرب **مجتمعية باردة بين الغرب والإسلام** تقف فيها أوروبا على خط المواجهة، وهذا التطور له علاقة بالعلمانية، وقيم العلمانية، مقابل القيم الدينية، وله علاقة الخصوصية التاريخية بين المسيحية الغربية، والإسلام، وبالغيرة أيضا من القوة الغربية، والاستياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية، بعد زوال الاستعمار، والشعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين الغربية والإسلامية، فى القرنين الأخيرين. كما أن حرباً مجتمعية باردة على الإسلام، سوف تساعد على تقوية الهوية الأوروبية بشكل عام، فى وقت حاسم بالنسبة للوحدة الأوروبية، ومن هنا قد يكون هناك مجتمع فى الغرب مستعد، ليس لدعم حرب مجتمعية باردة على الإسلام فقط، بل ولتبنى سياسة تشجع على هذه الحرب (٢٥: ٣٤٣-٣٤٤).

ويرى "هنتنجتون"أن العالم الجديد ستكون فيه الصراعات بين شعوب تنتمى إلى كيانات ثقافية مختلفة، وأن العنف داخلها يحمل معها إمكانية التصعيد، وتهب جماعات من تلك الحضارات، وتتجمع لدعم دول القربى لا لأسباب أيديولوجية أو سياسية قوى أو مصلحة اقتصادية، ولكن بسبب **القربى الثقافية** مثلما حدث فى مساعدة السعودية وتركيا وإيران وليبيا للبوسنة (٢٥: ٣٩، ٤٧)، ويعتقد "هنتنجتون" بأن الحضارة الغربية هى أول حضارة تقوم بالتحديث، لذا فإنها تعتبر أول حضارة قائدة فى استحواذها على ثقافة التجديد، وحيث أن الحضارات الأخرى لديها أنماط مماثلة من العمل، والتعليم، والثروة، والتركيب

الاجتماعى، يسرى الزعم بأن الثقافة الغربية ستكون هى الثقافة العالمية أو الثقافة العامة فى العالم (٢٥: ١١٣).

وعدّد "هنتنجتون" الحضارات الموجودة فى العالم وهى [الإسلامية، الصينية، الهندية، اليابانية، الغربية] ويمكن إضافة [الحضارة الروسية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، والأفريقية] (٢٥: ٧٤).

ويعتقد هنتنجتون فى **ضرورة وجود عدو لتحقيق الأنا**، وأخطر العداوات المحتملة هى التى عبر خطوط التقسيم بين حضارات العالم الرئيسة، ويؤكد ذلك بقوله "نحن لا نعرف مَنْ نكون؟ إلا عندما نعرف مَنْ ليس نحن؟ وذلك يتم من خلال معرفتنا نحن ضد مَنْ؟ (٢٥: ١٣٧)

ولعل فى هذا تأكيد على أن الحضارة الغربية قامت على الصراع، ولا يتأكد تحقيق وجود الغرب وإثبات الذات إلا من خلال (الآخر)، الذى يتحتم ضرورة تحديده واتخاذه عدواً، ومناصبته العداء، ومحاربته وتدميره، هنا فقط عليه إثبات وجوده وتحقيق ذاته.

والمتأمل لكلتا الأطروحتين الخاصة "بنهاية التاريخ"، "صدام الحضارات" يتبين أن الغرب لا يعرف ذاته إلا من خلال (الآخر)، الذى لابد من تدميره وسحقه ليتحقق وجوده وبسط نفوذه وهيمنته، وبعد انهيار الشيوعية أصبح هذا العدو "هو الإسلام"، ولهذا فهو يستعد بجدية لهذا الإسلام، ويضع فى حسابه الإحياء الدينى فى العالم، وخاصة الصحوة الإسلامية.

ويرى هنتنجتون أن **الإحياء الدينى** فى معظم أنحاء العالم يقوى من الفروق الثقافية، وأنه فى الثمانينيات والتسعينيات كان التوجه العام للإسلام مضاد للغرب، وهذا فى جزء منه نتيجة **للصحوة الإسلامية**، ورد فعل ضد ما يعتقد أنه تسميم غربى للمجتمعات الإسلامية، وتأكيد الإسلام مهما كان شكله المذهبى يعنى رفض المؤثرات الأوروبية والأمريكية على المجتمع المحلى،

وعلى السياسة والأخلاق، فالمسلمون يخشون من القوة الغربية، وما يمثله ذلك من خطر بالنسبة لمجتمعاتهم ومعتقداتهم، ويرون أن الثقافة الغربية ثقافة فاسدة متفسخة لا أخلاقية، مغوية، ومن هنا يؤكدون أكثر فأكثر على الحاجة إلى مقاومة تأثيرها على أسلوب حياتهم، ويهاجم المسلمون الغرب بدرجة متزايدة لأنه لا يتبع دين، ويرى المسلمون أن العلمانية اللادينية، واللاأخلاقية شروراً أشد سوءً من المسيحية الغربية التى أنتجتها (٢٥: ٣٤٥)، وأن التحرك من أجل الإحياء الدينى معاداة للعلمانية، والحضارة الغربية، فيما عدا تجلياتها المسيحية، كما أنها معارضة للنسبية والأنانية والاستهلاكية المرتبطة بما يسمى الحداثة، وأنهم لا يرفضون التحديث وإنما يرفضون الاستغراب (٢٥: ١٦٦).

ويقر "هنتنجتون" بانتشار الصحوة الدينية فى كل القارات، وأن التوجه نحو العلمنة، وتكييف الدين مع العلمانية أخذ وجهة معاكسة، وأصبح التوجه الدينى يستهدف إعادة أساس مقدس لتنظيم المجتمع، أو تغييره إذا لزم الأمر، وأن القضية لم تعد قضية تحديث، وإنما هى قضية **أنجلة لأوروبا، وليس تحديث الإسلام**، بل **أسلمة الحداثة**، وظهرت فى جميع الأديان حركات أصولية ملتزمة بتنقية عنيفة للمعتقدات والعادات الدينية، وإعادة تشكيل السلوك الشخصى والاجتماعى العام بما يتفق والعادات الدينية (٢٥: ١٥٨).

وفى استمرارية خوف الغرب من انتشار الإسلام، مما يتطلب ضرورة تدميره، يرى "هنتنجتون" أن الثقافة الإسلامية تفسر إلى حد كبير فشل قيام الديمقراطية فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى، ويرى أن أفق النجاح فى الجمهوريات الإسلامية كئيبة، وفى حين أكد أن الغرب هو أقوى الحضارات وسيظل كذلك لسنوات قادمة، إلا أن قوته تتدهور بالنسبة للحضارات الأخرى (٢٥: ٤٨)، وأنه على الرغم من سيطرة الغرب من ناحية القوة والنفوذ فى القرن الحادى والعشرين، إلا أن الزيادة البارزة فى القوة سوف تتراكم فى الحضارات الأسيوية، مع بروز الصين كمجتمع هو الأكثر ترجيحاً لتهديد الغرب

على النفوذ الكونى، وسيحدث فى المجتمعات غير الغربية يقظة، وتوكيد لثقافتها وزيادة رفضها للثقافة الغربية (٢٥: ١٣٥).

وعلى الرغم من أن "هنتنجتون" يرى أن كل من الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية تنتهج تقاليد ثقافية عظيمة أرقى من تلك التى لدى الغرب، إلا أنه يرى أن الصراع يتزايد ويشتد بين مصالحهما وقيمهما، ومصالح وقيم الغرب، وأنه منذ السبعينيات يوجد اتجاهاً مضاداً للغرب ثابتاً تقريباً، من علاماته صعود الأصولية، وتحولات القوة داخل الدول الإسلامية، من حكومات أكثر مولاة للغرب، إلى حكومات أكثر عداء له، وظهور ما يشبه الحرب بين الجماعات الإسلامية والغرب، وضعف العلاقات الأمنية التى كانت قائمة بين بعض الدول الإسلامية، والولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة (٢٥: ٢٩٦).

ويؤكد "هنتنجتون" أنه برغم أن الدول الإسلامية، والأسيوية تبحث عن طرق مختصرة، لكى تتوازن عسكرياً مع الغرب، إلا أن: [الطموحات العالمية للحضارة الغربية، والقوة النسبية الغربية المتدهورة، والتوكيد الثقافى المتزايد للحضارات الأخرى] كل هذا يؤكد العلاقة الصعبة بين الشرق، والغرب بوجه عام، وإن كانت طبيعة هذه العلاقات ومدى عدائيتها تختلف تماما (٢٥: ٢٩٥)، ولذلك فمن خلال النظرة الواقعية فى العلاقات الدولية التى تتنبأ بأن دول المركز فى الحضارات غير الغربية، لابد لها من أن تتآلف معاً، لتوازن قوة الغرب المسيطرة، فالحضارة الإسلامية أو الحضارة الصينية رغم اختلافهما من ناحية [الدين، والثقافة، والبنية الاجتماعية، والتقاليد، والسياسة والافتراضات الأساسية فى أساليب الحياة]، إلا أنه يوجد بين كلتا الحضارتين أمور مشتركة، وفى السياسة يمكن العدو المشترك أن يخلق مصلحة مشتركة، وكلاهما يرى فى الغرب عدواً مشتركاً (٢٥: ٢٩٦).

❖ **وهكذا لا تختلف كثيراً أطروحة "هنتنجتون" عن أطروحة "فوكوياما"، فكلاهما يروج للعلمانية، والليبرالية، والديمقراطية الغربية، ويريد فرضها بالقوة على العالم**، ولذلك عكستا خوف الغرب من حركات الإحياء الدينى فى العالم، التى ترفض العلمانية، وخاصة الصحوة الإسلامية، وترجح اتحاد الحضارة الإسلامية، مع الصينية، فى مواجهة حضارة الغرب العلمانية، حفاظاً على ثقافة كل منهما ... وهكذا يعكس مفكرو الغرب الأسس التى قامت عليها الحضارة الغربية، ومدى رفضها، وكيفية الإعداد لمواجهة الحضارات الأخرى.

ولم يمض أربع سنوات على صدور كتاب "صدام الحضارات" حتى عاد "هنتنجتون" يروج للعداء للإسلام ويردد ما سبق وألمح إليه فى كتابه(*) من أن النمو الديموجرافى للدول الإسلامية هو مصدر التهديد للحكومات الإسلامية، والمجتمعات غير الإسلامية، ليثير الحكومات على الإسلاميين، ويثير العالم على المسلمين، فنجده فى عدد نيوزويك السنوى عام ٢٠٠٢م، أصدر مقالة بعنوان "**عصر حروب الإسلام**"، يحاول فيها نسب العنف والإرهاب للإسلام مبرراً ذلك بعدة أسباب منها:

- كثرة حروب المسلمين، - القهر الداخلى فى معظم الدول الإسلامية.
- الحقد والحسد ضد الغرب بسب غناه وقوته.
- الانقسامات العرفية، والقبلية، والدينية.

ويرجع "هنتنجتون" العنف إلى زيادة معدلات الإنجاب، مما أدى إلى **الانبعاث الإسلامى** فى معظم الدول الإسلامية، وأن هذا أنتج **فوره فتية** كبيرة بين الشباب فى المرحلة العمرية بين ١٦-٣٠ سنة، وأنهم يتمتعون بمستوى تعليمى ثانوى وجامعى، لكنهم عاطلون، ومهاجرون إلى الغرب، وينضمون إلى منظمات أصولية، وأحزاب سياسية، أو جماعات عسكرية إسلامية، وشبكات

(*) راجع صامونيل هنتنجتون - صدام الحضارات، مرجع سابق، ص ص١٦٩ - ١٧٠.

إرهابية. ويرى "هنتنجتون" أن هبوط معدل الإنجاب فى الدول الإسلامية يقلل من العنف الإسلامى، مثلما فى بلاد البلقان، ولكنه مازال قلقاً بسبب ارتفاع معدلات الإنجاب بالسعودية، وحدد عام ٢٠٢٠م بأنه فى هذا العام، سيتقلص عدد الشباب المسلم، وعندها سيكون من المنطقى، أن يضمحل زمن حروب المسلمين، ليخلفه عصر جديد تسيطر عليه أشكال أخرى من العنف، بين شعوب الأرض (٤٠: ٥).

❖ مازال هنتنجتون كمفكر غربى علمانى، يخاف الإسلام وظهوره، وكأنه يروج لضرورة إبادة المسلمين – ولعل هذا يتضح فى البوسنة، كوسوفا، الشيشان، العراق، وأفغانستان حتى دون دليل لإدانتها – ولكن ثمة تساؤلات تطرح نفسها فى هذا السياق، ولا يمكن تجاهلها، نذكر منها على سبيل المثال، ما يلى:

لماذا كثرة حروب المسلمين؟ ومَنْ الذى يفتعلها؟ ومَنْ الذى يمولها؟ ولصالح مَنْ؟ ومَنْ الذى يتحمل ويلاتها على كل الأصعدة؟

– لماذا الدول الإسلامية رغم ما أنعم الله تعالى عليها مَنْ ثروات هى المقهورة؟ ومَنْ الذى يدعم قهرها فى بلاد المسلمين، وأيضا فى خارجها؟

– مَنْ الذى زرع الشوكة الصهيونية "إسرائيل" فى قلب العالم الإسلامى، ليستنزف من خلالها ثروات المسلمين ومقدراتهم ليظلوا دائما فى حالة ضعف؟

– مَنْ الذى يمول إسرائيل بمليارات الدولارات على شكل هبات مالية ومساعدات عسكرية، وتقنية وفنية ليجعل هذا الكم القليل العدد، كيفاً مركزاً وفعالاً فى مواجهة العالم الإسلامى ككل، ويساندها فى المحافل الدولية؟

– مَنْ الذى يدعم الانقسامات فى بلاد المسلمين؟ ويسعى لتحقيقها ممولاً إياها بالمال والسلاح، ويقف خلفها ليقتل المسلمين بعضهم بعضاً، حتى يتمكن من بسط يده على خيرات المسلمين؟

– مَنْ الذى يتزعم العولمة باتفاقياتها المجحفة التى تهدر إمكانات العالم الثالث ومن بينهم المسلمين؟

– مَنْ الذى يفتح بلاده لخيرة المهاجرين المسلمين ويرحب بهم كقوة شابة منتجة وفاعلة فى كافة المجالات ومشاركة فى حركة النمو والتقدم؟

– إن كان هناك حقد فهو حقد الغرب على ارتفاع نسب الشباب كقوة منتجة فى المجتمعات الإسلامية، رغم المساعى الحثيثة لخفض معدلات الإنجاب، لكن الله تعالى يعلم ما لا نعلم وسبحانه غالب أمره، هذا إلى جانب ثروات ومقدرات ومقدسات العالم الإسلامى.

– إنه الحقد على الإسلام كقوة فى حد ذاته لها احترامها، وتمتلك مقومات ذاتية عظيمة خالدة، تمنحه التجديد الذاتى وتجعله مستعصياً على العلمنة.

وإذا كانت هذه هى الممارسة الغربية ضد (الآخر الإسلامى)، فإن "هنتجتون" ليس بمخترع لهذا الذى مارسه الغرب عبر هذا التاريخ الطويل، وإنما فقط **كاشفاً** لهذه النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام وعالمه، وهذا هو معنى عبارته "إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام"

ولأن "هنتجتون" ملتزم بمصالح الغرب، وابناً لليهودية، فقد حاول تمييع الموقف عندما جعل هذا الصراع موقفاً مشتركاً، وفعلاً متبادلاً بيننا وبين الغرب، على حين كنا نحن الضحايا لهذه النزعة المركزية الحضارية الغربية، ولهذه الفلسفة الصراعية – التى مثلت ولا تزال – جزءا من البنية العضوية، والروح السارية فى الحضارة الغربية، و"هنتجتون" بموقفه هذا لا يزيف الحقيقة فقط، وإنما يتجاهل موقف الإسلام، وأمته وحضارته إزاء (الآخر)، ويتجاهل رفض الإسلام للفلسفة الصراعية وتبنته –بدلا منها– لفلسفة **التدافع** الذى هو حراك سياسى، ودينى، وفكرى، واجتماعى، يصحح مواقف الظلم والجور والخلل،

ليعيد علاقات الفرقاء المتمايزين، والمختلفين إلى نقطة العدل والتوازن، دون أن يذهب بالصراع إلى "صرع" (الآخر) وإلغائه، وأيضا دون أن يتبنى موقف السكون والسلبية، الذى يدع العالم ومجتمعاته غابة يفترس الأقوياء فيها الضعفاء، فالإسلام رافض لمذهب الصراع وفلسفته، ومنحاز إلى التدافع الحضارى وفلسفته، لأن التعددية والتمايز والاختلاف والتنوع – بنظر الإسلام – سُنة من سُنن الله تعالى الكونية، والتكوينية فى مختلف ميادين الوجود والحياة، **فالأحدية فقط هى للذات الإلهية**، وماعدا ومَنْ عدا الذات الإلهية قائم على سُنة وفلسفة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف... (٤٦: ١٤٣-١٤٤).

ثالثاً: الإسلام فى فكر بعض الحكام والمسئولين والإعلام الغربى

انطلاقا من خطورة دور المؤسسات السياسية على يد خبرائها فى الترويج لسياستها، من خلال وسائل الاتصال الجماهيرى، يوظف الإعلام الغربى كل طاقاته، لإشاعة العداء للإسلام، واتهام المسلمين بالعنف والإرهاب، ويجب الحذر منه، وشمل ذلك العديد من الكتب والصحف والمجلات، كما روّج الإعلام لهذا العداء من خلال ترويجه لعدد من المصطلحات، ويؤكد ضرورة محاربته لها مثل "الأصوليون الإسلاميون"، "المتعصبون"، "الإرهابيون"، "الإحياء الإسلامى"، "الصحوة الإسلامية"، الراية الخضراء"، الخطر الإسلامى" وغيرها مما يثير العالم ضد الإسلام والمسلمين.

ويرى "روبار شارفان" –الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة "تيس" بفرنسا– أن التمثلات حول العربى فى فرنسا ليست مبنية على الاحتكاك به، ولكنها تتبلور من خلال المواقف السائدة إزاءه، ففى فرنسا تطورت القوالب الجاهزة للعربى، انطلاقاً من العلاقة به أثناء حرب الجزائر، ثم انطلاقاً من العمال المهاجرين، عندما لم يعد الاقتصاد الفرنسى فى حاجة إليهم، حقا لقد ظهرت **القوالب الجاهزة** لتبرير العلاقات القائمة.. وأنه دائما ما تكون **صورة العدو مضخمة**، لأنه لا وجود لعدو قط، إلا وكان قوياً، وهكذا يجد العربى نفسه وقد

منح من القوة أكثر مما عنده، وصار الإرهاب مصدر الخوف الأول، ونعتت ليبيا الصغيرة التى لم يتجاوز تعدادها أربعة ملايين نسمة، بمصدر الخطر الذى يهدد العالم أجمع تهديداً بلغ من الدرجة ما دفع أكبر قوة فى العالم "الولايات المتحدة الأمريكية" إلى قصفها، دون أن يثير هذا القصف ردود فعل كثيرة، أما الهجرة فصارت فى رأى نسبة كبيرة من الفرنسيين، الخطر الرئيسى الذى يهدد السلم المدنى، والتوازنات الاقتصادية والاجتماعية والهوية الفرنسية.

ويصرح"شارفان" بوجود استراتيجيات تتعمد صنع صورة مثلى عن العدو الأمثل، ويعزز هذه الصور عدد كبير من المثقفين، وأيضا يؤكد على دور العربى فى صنع واقعة مشيراً لوجود تفاعل بين التمثل الغربى للعربى، وواقع هذا العربى، وإن كان هذا (الآخر) العربى يكشف النقاب عن غرب منتصر مبلبل الأفكار فى آن واحد، غنى ومنهك القوى، قوى ومريض بالهذيان الذهانى، متطور ثقافياً وتكنولوجياً ولكنه متأثرا بالتفسيرات السحرية، فبلغ بذلك حد يجوز معه القول بظهور مرض فيه قد يحوّله إلى عالم ثالث فى مجال الحياة الروحية. (١٨: ٥٩٥-٥٩٧).

[١] الإسلام فى فكر بعض الحكام، والإعلاميين قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١:

لعل فى الإصغاء الواعى للتصريحات الرسمية لحكام الغرب، يتأكد لنا ليس فقط الجهر بالعداء للإسلام، بل أيضا التآمر للقضاء عليه، ومن أمثلة ذلك:

- فى عام ١٩٨٥ قال الرئيس الأمريكى "**ريجسون**" بعد تولى جورباتشوف للسلطة فى الاتحاد السوفيتى الأسبق "يجب على روسيا وأمريكا أن تعقدا تعاوناً حاسماً لضرب الأصول الإسلامية"

- فى عام ١٩٩٠ ألقى وزير الخارجية الأمريكى "**هنرى كسينجر**" خطاباً أمام المؤتمر السنوى لغرفة التجارة الدولية قال فيه "أن الجبهة الجديدة التى يجب على الغرب مواجهتها هى العالم العربى الإسلامى" باعتباره العدو الجديد للغرب.

- قال الرئيس "**نيكسون**" في كتابه بعنوان: "نصر بلا حرب" أنه على الولايات المتحدة أن تنتزع الزعامة الروحية من العالم مثلما انتزعت الزعامة العسكرية والاقتصادية. (١٣: ٥٤٤، ٥٤٥).

وفي تصريح آخر له في كتابه المعنون "الفرصة السانحة" قال عن صورة الإسلام والمسلمين في العقل الأمريكي: "أن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء... ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون - بالصدفة - على بعض الأماكن التي تحوي ثلثي النفط الموجود في العالم..... وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة إلى الصين الشيوعية- في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي... ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة، وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة، وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي.

ويزيد هذا الرأي: أن الإسلام والغرب متضادان، وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين: "دار الإسلام"، و"دار الحرب"، حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفيتي ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة. (٤٦: ١٣٧-١٣٨).

- وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩ قالت رئيسة وزراء بريطانيا "**مارجريت تاتشر**" في كلمة لها أمام حلف شمال الأطلنطي، "أن العدو الباقي القادم هو الخطر الأخضر - الإسلام - بعد أن تم القضاء على الخطر الأحمر".

- قال المسئول الفرنسى عن الهجرة "جان **كلود بارو**" أن الإسلام هو الخطر على مستقبل الغرب.

- برر الرئيس الفرنسى "**فرانسو ميتران**" مساعدته للرئيس العراقى "صدام حسين" فى حربه مع إيران، فقال: "كنا نساعده لأنه يحارب الأصولية الإسلامية فى إيران، التى تمثل تهديداً أكبر لمصالحنا".

- صرح القائد العام للقوات المسلحة الألمانية "**كلاووس نيومان**" يحذر من أن "الخطر الأخضر قد حل محل الخطر الأحمر، وأن هلاله يمتد بين المغرب وباكستان، وأنه يشكل تحدياً أيديولوجياً للغرب".

- كما صرح رئيس هيئة حماية الدستور بألمانيا "**ايكارت فيرتى باخ**" بأنه "سيحل الصراع الحاد بين الثقافة الغربية، والثقافة الإسلامية العدوانية، بعد نهاية الشيوعية، محل صراع الشرق والغرب". (١٣: ٥٤٥).

وحين اجتمع **وزير الدفاع الفرنسى** بمسئولين عسكريين فى أسبانيا وإيطاليا، قال أنه بصدد تكوين **جيش طوارئ من الدول الثلاث لمواجهة الأصولية الإسلامية**، ولم يقول الإرهاب أو التطرف الإسلامى، فلقد جعل الغرب "الأصولية" عدواً يهدد حضارتهم، فيعلن عن تكوين جيش جرار من الدول الثلاثة للتصدى للأصولية جنوب البحر المتوسط الممتد بطول مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، وعمقاً إلى السودان والنيجر وتشاد وأرتريا والصومال، أنها حقا رائحة صليبية يهودية تفوح من وزير فرنسى يعد كتائب للتصدى للأصولية الإسلامية. (٥٣: ١١٩، ١٢١).

ومن الشهادات الغربية الدالة على عمق الموقف الغربى الرافض للآخر الإسلامى، شهادة "**جلوب باشا**" [١٨٩٧ - ١٩٨٦م]، وهو جنرال بريطانى، وكاتب فى تاريخ العرب والفتوحات الإسلامية، حيث أعلن أن مشكلة الغرب مع

الشرق إنما ترجع إلى ظهور الإسلام فقال "أن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد".

وكذلك شهادة عميد الاستشراق الفرنسى المعاصر **"جاك بيرك"** [١٩١٠ – ١٩٩٥م] الذى تحدث عن الرفض الغربى.. والإنكار.. والاستبعاد.. والاتهام للإسلام.. فقال: "إن الإسلام الذى هو آخر الديانات الثلاث، والذى يدين به أزيد من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافياً وتاريخياً، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم، قد ظل ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكور الأبدى.. والمبعد الأبدى.. والمتهم الأبدى... والمشتبه فيه الأبدى.

وهذه الشهادات يؤكدها المفكر القومى العربى **"ميشيل عفلق"** [١٩١٠ – ١٩٨٩م] عندما يقول: إن أوروبا اليوم، كما كانت فى الماضى، تخاف على نفسها من الإسلام، وأن المنافسة بين الغرب والأمة العربية سببها الدور الحضارى الذى جاء به الإسلام.. والحروب الصليبية لم تنته بعد(*)، وصيغتها الأخيرة هى **الكيان الصهيونى**، فلقد أصبحت اليهودية – بقوة الصهيونية فى الغرب – جزءً عضوياً فى جسم الغرب، وحليفاً لمحاربة الإسلام...، ومنذ قرون عديدة، والغرب الاستعمارى يخوض صراعاً تاريخياً ضد الإسلام والأمة العربية بدافع التعصب الدينى والعنصرى، وحب الاستغلال والهيمنة.. ولقد أصبح الغرب اليوم أشد عداء للعرب والإسلام، منذ وجد فى الصهيونية ضالته المنشودة، وهذه الشراكة بين الغرب والصهيونية هى أخطر بكثير من مجرد تحالف سياسى، إذ أنها تستند إلى شراكه حضارية ثقافية عميقة عمرها مئات السنين. نعم لقد توحدت قبضة الغرب فى مواجهة الإسلام.. فالمشروع

(*) ولعل فى تصريح الرئيس الأمريكى بوش بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ومواقفه المنحازة لإسرائيل، ما يؤكد ذلك بوضوح تجاه الإسلام والمسلمين.

الصهيونى بدأ مشروعاً بروتستانتياً غربياً، ثم تبنته الإمبريالية الغربية – العلمانية – ضد الإسلام ووطن العروبة وعالم الإسلام، وها هو "التحالف الغربى -الصهيونى-" ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه يكتمل **بابتزاز الصهيونية للكاثوليكية الغربية**... حتى غدت تطلب الغفران من اليهود فى ذات الوقت الذى تعلن فيه **حرب التنصير ضد الإسلام والمسلمين.**

وبعد سقوط الخيار الاجتماعى الماركسى، توحدت قبضة الغرب الليبرالى، ورأوا ذلك نهاية التاريخ، الذى يجب أن يفرض على (الآخر) – وبالذات الآخر الإسلامى – بصدام وصراع الحضارات. (٤٦: ١٥١-١٥٢).

ولم يمض كثيرا على تصريحات نيكسون، ووزير الدفاع الفرنسى، وغيرهما من زعماء الغرب – بعد انهيار الاتحاد السوفيتى- إلا وقد **تحالفت روسيا مع الغرب ضد الإسلام، تحت لواء مكافحة الإرهاب، تلك المظلة الكاذبة التى جمعت أوروبا مرة أخرى فى حرب كما صرح بها الرئيس الأمريكى "جورج بوش الابن" عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، أنها الحرب الصليبية الأولى فى القرن الحادى والعشرين** لمحاربة الإرهاب، والغريب أنه لا يوجد أدلة تشير مَنْ هو ذلك الإرهابى، ولكنه تحالف وضع نصب عينيه المسلمين، فانقض بقيادة الولايات المتحدة على الدولة الإسلامية "أفغانستان" بجنوب شرق أسيا، وأطلقت يد إسرائيل فى فلسطين لإبادة الفلسطينيين، بل وأُعِدتْ قائمة صنفت فيها دول عربية وإسلامية، وكذلك المنظمات الإسلامية، وتلك القائمة ترى أن تبدأ بالعراق وإيران حيث وصفتا بأنهما ضمن مثلث الشر بالعالم.

وبالعودة للوراء قليلا مع ما صدر فى صحف ومجلات الغرب، وخاصة إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، ندرك مدى المغالطات والافتراءات، التى تسقط على الإسلام، لتعكس مدى استهداف الغرب للمسلمين، وليتأكد لنا أن عداء الغرب للمسلمين كامن ومتوارث ومتنامى، وينتظر الفرصة، إن لم يكن يَعُد لها، ليتمكن من الانقضاض على المسلمين، ولعل فى التصريحات التالية ما يؤكد ذلك – وتلك بعض الأمثلة:

- نشرت صحيفة "**الفاينشنال تايمز البريطانية**" عام ١٩٩٠ مقالة جاء فيها: "إذا كانت أمريكا تشجع الاتجاهات الديمقراطية فى شرق أوروبا، فيجب ألا تشجع ذلك فى العالم الإسلامى، لأنها بذلك تدفع الأصوليين لتسلم السلطة".

- نشرت صحيفة "**صندای تلجراف البريطانية**" **فى ١٩٩٠/٦/١٥** فى افتتاحيتها الرئيسية، مقالة جاء فيها: "هل يقبرنا الإسلام؟ "وتضمنت المقالة تحذيراً شديداً من انتشار الإسلام فى أوروبا".

- نشرت صحيفة "**صندای تلجراف**" **عام ١٩٩١**، معالا بعنوان: "الوجه القبيح للإسلام" لـ "بيرجرين دور سورن" قال فيه: "أن حلف شمال الأطلنطى سوف يعيش، وأن الغرب سيبقى مجموعة لها قيم أساسية مشتركة، وستبقى هذه المجموعة متماسكة معاً، من خلال الشعور بخطر خارجى، وهو التطرف الإسلامى، كما ذكرت نفس الصحيفة أن الإسلام الذى كان حضارة عظيمة تستحق الحوار معها، قد انحط فأصبح عدواً بدائياً لا يستحق إلا الإخضاع".

- نشرت صحيفة "**الإيندبندت البريطانية**" **تقريرا فى ١٩٩١/٩/٧** أشارت فيه إلى أن الأصولية الإسلامية ستكون البديل للجمهوريات الإسلامية الجديدة وحذرت من المد الإسلامى فيها.

- نشرت صحيفة "**صندای تايمز البريطانية**" عن التهديد الأصولى فقالت: "إن الغرب، والاتحاد السوفيتى - قبل انهياره - ينبغى أن يستعدا لمواجهة أسفين إسلامى أصولى هائل، يمتد من شواطئ البحر المتوسط فى شمال أفريقيا إلى آسيا الوسطى إلى حدود الصين". (١٣: ٥٣٩-٥٤٠)

- فى يوليو ١٩٩٣، سألت **مجلة النيوزويك الأمريكية**(*) - رئيس مجلس الوزراء الأوروبى - السياسى الإيطالى البارز "**جيانى ديميكليس**"

(*) الأهرام، عدد ١٧ يوليو ١٩٩٣، من مقالة فهمى هويدى: "من يعادى من؟" وهو منقول عن "النيوزويك الصادر فى يوليو ١٩٩٣، نقلا عن محمد عمارة، الإسلام والآخر، ص١٣٩.

عن أسباب ومبررات بقاء حلف الأطلنطى "الناتو" بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالى، والمعسكر الذى كان اشتراكياً؟ فأجاب رئيس مجلس الوزراء الأوروبى بقوله: "صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها، بين العالم الغربى والعالم الإسلامى"، ولما عاد مراسل النيوزويك، ليسأل عن كيفية تجنب تلك المواجهة المحتملة، لم يتردد "جيانى ديميكليس" فى أن يعلن أن الشرط هو تعميم النموذج الغربى، وقبول المسلمين له، أى إلغاء الآخر الإسلامى فقال: "ينبغى أن تحل أوروبا مشاكلها ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين فى مختلف أنحاء العالم، **وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى، فإن العالم سيصبح مكاناً فى منتهى الخطورة**".فإما تغريب العالم، وإلغاء (الآخر الحضارى) وإما المواجهة على اختلاف آلياتها وميادينها.

- **أما مجلة شئون دولية International Affairs** – عدد يناير ١٩٩١ –التى يصدرها المعهد الملكى للشئون الدولية – بجامعة كمبردج البريطانية، فإنها تقدم التفسير الثقافى والحضارى، لإعلان كثير من مؤسسات المشروع الغربى، أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية، فإذا بجوهر أسباب هذا الإعلان لهذا العداء هو: **رفض الإسلام وعالمه التخلى عن النموذج الثقافى والحضارى المتميز، واستعصاء الإسلام على الذوبان فى النموذج الطمانى الغربى**، فلهذا السبب اصبح الإسلام من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة (٤٦: ١٣٩-١٤٠).

- وفى أوائل **أكتوبر عام ١٩٩٤، دقت مجلة "لوبوان"** الفرنسية، ناقوس الحرب ضد الإسلام والمسلمين ونشرت تحقيقاً مطولاً من ست عشرة صفحة

كاملة، فيها تأمل للكاتبة الفرنسية "كرستيبان ماكاريان" عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ بعنوان: "الحياة الحقيقية لمحمد"، وزودت الموضوع بصور زعمت أنها للرسول والصحابة وعلى بن أبى طالب، والسيدة فاطمة بنت رسول الله، رضى الله عنهم جميعا، وجبريل عليه السلام وبلغ من ترويج المجلة للموضوع أنها وضعته على الغلاف كله برسم مزعوم للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يتلقى الوحى من جبريل عليه السلام.

- **وفى مارس ١٩٩٥، نشرت مجلة "أربيك" الصادرة فى مقاطعة** كولونيا بألمانيا، آيات قرآنية كريمة حول صور لراقصات عاريات، وفى حينه رفع عدد من المحامين المصريين - بالتضامن مع عدد من رجال الأزهر والشخصيات العامة - دعوى على وزارة الثقافة، لسماحها للمجلة بدخول مصر.

- فى **مايو ١٩٩٥، فى عدد غير عادى لمجلة "تيوزويك"**، أفردت المجلة عدداً كبيراً من صفحاتها تحت عنوان وكأنه صيحة تحذير: "أوروبا المسلمة"، وحرصت المجلة على بث الرعب لدى الأوروبيين من المسلمين، فتساءلت عن مستقبل أوروبا مع تزايد أعداد المسلمين - جدير بالذكر أن فرنسا وحدها بها حوالى أربعة ملايين مسلم ومسلمة - وما ينتج عنه من تغيير لوجه الحياة فى القارة الأوروبية، وقد تعمدت المجلة أن تُذَكِّرْ أوروباْ بالحروب الصليبية.

- **وفى سبتمبر عام ١٩٨٨ كانت صورة الغلاف لإحدى المجلات الأسبانية**، تمثل أحد المسلمين يمسك بالسيف كرمز للإسلام ويغمده فى قلب خريطة أسبانيا - رغم علم الغرب بمدى ما تركه الإسلام فى أسبانيا، من تقدم وحضارة بل وكانت "الأندلس" هى المعبر إلى أوروبا كلها، ولكنه من المغالطات التى يريدون الترويج لها وتزيف التاريخ - **وكان التعليق المصاحب للصورة، الإسلام يتغلغل فى أسبانيا**، وتضمن الموضوع أكاذيب تتضمن التشكيك فى نزول القرآن، والتنديد بلغته وأسلوبه، وأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو

مؤلف القرآن، ومختلقه وربطه بالديانتين السابقتين لإضفاء الشرعية على دينه، وكذلك التشكيك فى شخص سيدنا محمد، وهويته والتأكيد على شهواته، وأنه أخذ طقوس اليهود تملقاً لهم، ثم عدل عنها تملقاً للمسيحيين، واتهام التراث بتحريف التاريخ والغزوات الإسلامية.

ولم تتردد أجهزة التلفاز الغربية فى المشاركة هى الأخرى فى الترويج للعداء للإسلام:

- فى عام ١٩٩٥ نشر التليفزيون الأوروبى حلقات متتابعة بعنوان "**الإسلام والخنجر**" وهى حلقات تدور حول أن الإسلام دين عنف وإراقة دماء لكل مَنْ لا يعتنقه، بل وأيضا إراقة دم مَنْ يعتنقه ولكن يخالفهم فى الرأى، ويستشهد فى ذلك بفتاوى إهدار دم "سلمان رشدى" صاحب آيات شيطانية.

- دأب التليفزيون الفرنسى بقنواته المختلفة على بذل جهد حثيث لإثارة الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، حتى صار يمنع المثقفين البارزين المعارضين لتلك اللوثة الفرنسية ضد الإسلام، من الظهور على شاشات التليفزيون، ويعتبر الباحث الفرنسى المعروف "**فرانسو بورجا**" وهو من أكثرهم تفهماً وإنصافاً للمسلمين نموذجاً لضحايا هذا الموقف، لا يسمح له بالظهور إلا فى برامج تلفزيونية ألمانية فرنسية، ويستعين به الألمان وليس الفرنسيون. (١٣: ٥٤٢-٥٤٤)

وهناك مسلمات يتم من خلالها صياغة المادة الإخبارية التى تتعرض لأحداث العالم العربى منها:

- ينظر إلى الشرق الأوسط على أنه قوساً للأزمة فى ضوء الحروب والإرهاب والأطماع وتضارب القوى المحلية والدولية.

- هناك من يستسهل الكتابة عن منطقة الشرق الأوسط، فى ضوء مسلمات بعينها مثل تلك التى انتهى إليها كل من: "باتاى، لافين، كرينان" مما خلق صورة أصبحت تروج للعنف وتسعى إليه، وتكرس استغلال الأمم الأخرى، على اعتبارها مجتمعات لا تستحق المساواة أو المعاملة الإنسانية.

- كما اصبح من المقبول عقلاً استراتيجية اقتحام واستعمار هذه البلدان العربية، كما روج وزير خارجية أمريكا باحتلال مناطق النفط، وأنه ينبغى تبنى السياسات والاستراتيجيات التى تتم من خلالها معاملة الدول العربية فى ضوء كتابات "رفائيل باتاى" وأمثاله. (٧: ٢٣٦، ٢٣٧).

[٢] الإسلام فى فكر بعض الحكام والإعلاميين بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١:

أما عن المواقف والتصريحات التى نشرها الإعلام الغربى بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، فهى لا تختلف كثيراً عما قبلها، بل أصبحت أكثر شراسة وتطاول على الإسلام، وتروّج للافتراءات والأباطيل، التى من شأنها مناصبة العداء للمسلمين ووصفهم بالإرهاب والتطرف، لتبرر انقضاضها على بلاد المسلمين وما يؤكد ذلك تصريحاتهم التى منها **على سبيل المثال، ما يلى:**

- صرح الرئيس الأمريكى "**جورج بوش الابن**" بعد أحداث ١١ سبتمبر "ضرورة إعداد تحالف دولى عالمى لمحاربة الإرهاب، وأعلن أن تلك الحرب ستكون الحرب الصليبية الأولى فى القرن الحادى والعشرين، وعلى الرغم من تراجعه بعد ذلك مدعياً أنها زلة لسان، وأن المقصود هو محاربة الإرهاب، إلا أنها تعكس مدى عداوة الغرب للإسلام.

- صرح "**بيرلسكونى**" رئيس وزراء إيطاليا - اتفاقاً وإعادة لتصريح جوج بوش - " بعدائه للإسلام وطالب محاربة المسلمين" ولكنه أيضا هو الآخر تراجع عن تصريحه، خشية أن يعوق ذلك تأييد العرب والمسلمين للحملة العالمية التى زعم الغرب أنها ضد الإرهاب، ولكن ما صرح به ليس بزلة لسان كما قيل عنه، وإنما هو إفصاح حقيقى عن مشاعر العداء الكامنة ضد الإسلام والمسلمين.

- وسار "**تونى بلير**" رئيس وزراء بريطانيا، على نهج بوش الابن، وبير لسكونى، وكأنما قرر إبادة العالم الإسلامى، وجره إلى حالة من الرعب

تفوق الحروب جميعاً، وقتل جميع الفقراء من عالم اليوم، وإن كان تحت مسميات مختلفة، والغريب أن كل من الرئيس بوش ورئيس وزراء بريطانيا قد رشحا لنيل جائزة نوبل للسلام على الرغم من قتلهما، وفقا للإحصاءات الدولية، ما يزيد على عشرين ألف مسلم منذ أحداث ١١ سبتمبر حتى الآن. (٦٢: ٧).

- على الرغم من تراجع الرئيس الأمريكى "**بوش الابن**" عن مقولته بأن هذه هى الحرب الصليبية وأولى حروب القرن الحادى والعشرين، تلك الحرب التى جمّع من أجلها تحالفاً عالمياً ينتهج أسلوب متعدد الأبعاد، ومن بينها البُعد العسكرى الذى بدأ بتدمير أفغانستان، إلا أنه لم يمض على تدمير أفغانستان خمسة شهور، وعاد الرئيس الأمريكى ليفصح عن نواياه ومشاعره ضد الإسلام والمسلمين، قائلا: "**إن أمريكا هى مصدر الخير كله، والعالم الإسلامى هو مصدر الشر كله**، ومادامت بعض دول العالم الإسلامى لم تخضع تمام الخضوع للإدارة الأمريكية، فإن الولايات المتحدة سوف تقوم بنفسها بتأديب هذه الدول (٤١: ٥)، وحدد بوش قائمة بأسماء هذه الدول وكلها دول إسلامية، وإن كان قد وضع على رأس القائمة [العراق، وإيران - وأضاف كوريا الشمالية] لاعتبارات أخرى، واعتبر هذه الدول الثلاث هى محور الشر فى العالم، وراح يهدد العراق، ويحرض الكويت على تأزيم الموقف مع العراق، ورفض مبادرة الأمين العام لجامعة الدول العربية "عمرو موسى" ودعا لترك القضية برمتها للأمم المتحدة - ونحن أعلم بمَنْ هى الأمم المتحدة اليوم، فى ضوء ازدواجية المعايير والكيل بمكيالين وسيادة القطب الأوحد - ويتأكد لنا أن القضية ليست شعب العراق وحده، وإنما هى ثأر من الأمة العربية الإسلامية بأسرها، اليوم فلسطين، وغداً العراق وللمرة الثانية بعد ضربها مسبقا وحصارها لمدة تزيد عن عشر سنوات حتى الآن، ثم إيران ويليها الصومال... (٥٤: ٤)، وما أسهل افتعال المشكلات، ونسبها إلى المسلمين، لتبرير تدمير بلادهم، وإبادتهم، ونهب ثرواتهم ومقدراتهم.

- وفى إطار الادعاء الوهمى بمحاربة الإرهاب، أباحت أمريكا لنفسها التدخل فى الشئون الداخلية للدول الإسلامية بصورة أو بأخرى، فتحاول مناقشة مناهج التعليم الدينى، وتطالب بمراجعة لغة الخطاب الدينى، كما تطالب بالكشف عن المصادر المالية وحسابات جماعات الأخوان المسلمين فى مصر، وتحاول البحث والتفتيش عن الجمعيات الأهلية الإسلامية، حتى وأنه بعد شهر من أحداث ١١ سبتمبر، طلب وفد بريطانى زيارة الأزهر، ومعاهده، وإجراء لقاءات مع طلابه للتعرف على آرائهم ومعتقداتهم، ناهيك عن التالى بعد:

- طالب **توماس فريد مان** عبر صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية، طالب وزير الشئون الدينية السعودى، بإصلاح برامج التعليم الدينى السعودى، وطالب الكويت بشديد الرقابة على الجمعيات الخيرية الإسلامية، وكلها أمور ترتبط بصلب الشريعة الإسلامية. (٨: ٧).

- صرح المدعو **فريد زكريا**، فى مقالة له، تناولت الوضع السياسى لمنطقة الشرق الأوسط، خاصة العالم الإسلامى، أن حلفاء أمريكا فى المنطقة العربية استبداديون، وفاسدون وقمعيون، ومع ذلك فهم أكثر ليبرالية وتسامحا وتعددية، ويقول إن مهمة الولايات المتحدة بعد تدمير ما يسمى "بالقاعدة" فى أفغانستان على اعتبار أنها إرهابية فإن مهمتها هى التقدم نحو **تجفيف مستنقع الإرهاب والتطرف الإسلامى** أى نقل المعركة إلى مصدرها الحقيقى، وهى بلاد العرب، فعلى السعودية التوقف عن دعم الإسلام، وضرورة أن تسيطر على زعمائها الدينيين والتعليميين، وفى مصر يجب أن تتوقف الصحافة التى تمتلكها الدولة عن معارضة أمريكا، وتمجيد المفجرين الانتحاريين الفلسطينيين - على حد تعبيره -، وعلى قطر أن تظهر الإسلاميين المعتدلين على قناة الجزيرة، ويجب الضغط على مصر أولا لأنها روح الثقافة فى العالم العربى. (٤١: ٥).

- فى تقرير تبنته [٦] مجموعات من أعضاء اللوبى الصهيونى بقيادة "**لورى ماداهان**" تم إرساله إلى الكونجرس الأمريكى حمل عنوان "**Why not?**" لم لا تضرب **مكة** بقنبلة نووية نظيفة، ويهدم ذلك المكان الذى يطلقون عليه

"الكعبة" حتى يعرف المسلمون الإرهابيون أننا أصحاب الكلمة العليا فى العالم، ألا يتساوى تدمير نيويورك فى أحداث ١١ سبتمبر مع هدم كعبة المسلمين ومساجدهم ذات القيمة الدينية والتاريخية الكبرى فى مكة.

- وفى التقرير الذى أعدته منظمات "**من أجل عالم أفضل**"، واللجنة الأمريكية الإسرائيلية للصداقة، ومنظمة ضحايا الأمريكيين والإسرائيليين برئاسة "ماداهان" رأت أن **دعوة الكاتب الأمريكى "ريتش لورى" فى مجلة ناشيونال ريفيو الأمريكية**، فى مقالته التى طالب فيها بضرب مكة المكرمة بقنبلة نووية لأنها متطرفة، وحتى تكون هذه إشارة للمسلمين، قال أن هذه الدعوة فى حاجة إلى مراجعة وتنقيح وإعادة قراءة فى ظل الحملة العالمية ضد الإرهاب الدولى، خاصة وأن معظم الإرهابيين (٩٠%) منهم ينتمون إلى الإسلام- على حد زعمهم-، والمؤثرين منهم من "السعودية، مصر، اليمن، ليبيا، إيران، سوريا" وغيرهم، من البلدان المحيطة بمكة، يرى التقرير أن **المبادرة الهجومية** هى أفضل خيار متاح أمام الإدارة الأمريكية، ويقول التقرير لن يكفينا ضرب العراق، فى حين أن ضرب مكة سيردع الإرهابيين عن الاستمرار فى أعمالهم، ويقول التقرير أنه من المهم أن نفكر جدياً فى مستقبل الأمة الأمريكية وأعدائها الحقيقيين، فنحن نعيش الآن أقوى مرحلة يصل إليها طموحنا، بعد أن تخلصنا من عدونا التقليدى "الشيوعية"، ولم نكن نفكر ذات يوم فى هذا العدو النائم "التطرف الإسلامى"، إننا أمام **حرب دينية** سواء شئنا أم أبينا... إنها دعوة صحيحة إلى إعادة تعيين الموقف، فلتهدم مكة، ويدمر ذلك الحجر - (يقصد الكعبة)- وليذهب المتطرفون المحمديون إلى الجحيم بأفعالهم. (٥٢: ٧).

- وتضمنت مقالة "لورى" دعوة إلى التحرك السريع تجنباً لوقوع آلاف الضحايا الأمريكيين من جديد، ويجب أن تُحَذرْ دمشق، القاهرة، الجزائر من خطر الإبادة النووية، إذا أظهروا أى علامة اعتراض. ولأنه معلوم أن الإعلام

الأمريكى لا يطلق ادعاءاته ورسائله إلا بتعليمات من صناع القرار، وأجهزة الاستخبارات، لذلك لا يمكن أن تبرأ الإدارة الأمريكية.

- وكما تهدد الصحف الأمريكية بضرب مكة، وبعض الدول العربية بقنبلة نووية، خرجت فى ٢٠٠٢/٣/١٧ مجلة إسرائيلية تهدد هى الأخرى بضرب "الكعبة الشريفة"، وكأن مقدساتنا صارت مستباحة (٥٦: ١، ٤).

- أثناء انعقاد جلسات الأمم المتحدة لحقوق الإنسان فى ٢٠٠٢/٣/١٨، أكدت المفوضة السامية لحقوق الإنسان السيدة/ **مارى روبنسون** على ضرورة احترام الثقافة الإسلامية، وتقدير الإنجازات الحضارية التى قدمتها للإنسانية، وحين علت بعض الأصوات الصهيونية تستنكر الحديث عن الإسلام، فى قاعات مقار الأمم المتحدة، ردت السيدة "روبنسون" - تكراراً لم حدث قبلها بيوم واحد من بعض العلماء المسلمين - بأن الأمم المتحدة ملك لجميع بنى الإنسان، ولجميع الدول، ولجميع الثقافات، وللمعبرين عن الحضارات الإنسانية بلا استثناء.

- دون صلة تنسب للإسلاميين فى أحداث سبتمبر، بادرت عقبها أمريكا بتدمير أفغانستان كما أنها تعمدت إخفاء جرائمها البشعة ضد الإنسانية، لأنها فى العلن تحاول ان تنصب نفسها راعية لحقوق الإنسان، بل وتفتعل الأزمات بحجة رعايتها لهذا الحق، ولكن لعلمها أنها أول مَنْ يهدر هذا الحق للإنسان، **حقه فى الحياة**، كان لزاماً عليها أن تخفى جريمتها فى أفغانستان **فكان منها:**

- اشترت الأقمار الصناعية التى تبين معالم جريمتها بكل أبعادها البشعة، حيث إلقاء أطنان القنابل المحرمة دولياً، وقصفت أقلام الصحفيين الأمريكيين، ليكتبوا فقط ما تسمح به وزارة الدفاع الأمريكية.

- جمعت الأسرى الذين أسرتهم، وسجنتهم فى القلعة، ثم قامت بدك القلعة بالقنابل، لتبيد المسلمين الأسرى الذين تجاوز عددهم ثمانمائة مسلم، وهم مقيدين بالسلاسل، محبوسين داخل الزنازين، بلا ذنب فعلوه إلا أنهم مسلمين.

- رحّلت أكثر من ثلاثة آلاف أسير، إلى قاعدة "جوانتانامو" فى خليج "كوبا" بعد تخديرهم وقيدهم إلى مقاعدهم بسلاسل، وأيديهم مربوطة بالقيود، وعيونهم معصوبة ووجوههم مغطاة، فى رحلة مدتها اثنتا وعشرين ساعة، وركبّت لكل منهم قسطرة للتبول من خلالها، وأصدرت الأوامر للحراس بإطلاق النار فى مقتل، عند أى حركة تصدر عن واحد منهم (٤٢: ٥).

ومثلما تفعل الولايات المتحدة فى أفغانستان، تفعل إسرائيل فى فلسطين وبدعم وتأييد من الولايات المتحدة التى أعطتها الضوء الأخضر، لتطلق يدها فى فلسطين، تبيد المواطنين كيفما شاءت، بعد تدمير بيوتهم ونهب خيراتهم وحصارهم شهور طويلة، وتطويق المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية التى تحت سيطرة السلطة، وتجميع الشباب ثم أخذهم أسرى معصوبى الأعين ومقيدين، إلى سجون إسرائيل حيث ينتظرهم الإبادة أو التعذيب المهين، بلا ذنب اقترفوه إلا أنهم عرب فلسطينيون صامدون فى أرضهم التى اغتصبت منهم، كما تمنع وتصيب الإعلاميين، حتى لا يلتقطوا الصور التى تكشف عن جرائمهم النازية البشعة، بل وتقصف سيارات الإسعاف وتحرمها من الوصول لإنقاذ المصابين، والحديث فى هذا المجال لا يكفيه مجلدات، ولكن يكفينا أن يسجل التاريخ أن إسرائيل بكل ترسانتها تقف أمام شعب محاصر، منهك، شبه أعزل لا يملك أبناؤه إلا الحجارة أمام القاذفات والدبابات والطائرات الحديثة، ناهيك عن القناصة التى تملأ شوارع القرى والمدن والمخيمات الفلسطينية.

- أيضا اعتبرت الولايات المتحدة **جيش محمد** - الذى يمثل الحركة الإسلامية التى تقاوم الاحتلال الهندى فى **إقليم كشمير ذو الأغلبية المسلمة**، والذى ترفض الهند حق تقرير مصير هذا الإقليم وفقاً للشرعية الدولية - من المنظمات الإسلامية المستهدفة، لأن الولايات المتحدة تستهدف المسلمين أينما وجدوا، عرب كانوا أو غير عرب، حتى وأنها تستهدف المعارضة الإسلامية فى جنوب الفليبين. (٣: ٧).

إن هذه الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين، يقف وراءها مراكز تبحث وتخطط، ومصالح اقتصادية وسياسية واستراتيجية، ومن وراء كل هذه المراكز والمصالح، **القوة الصهيونية والمصالح الرأسمالية الغربية**، هذه القوة وتلك المصالح، هى التى تمتلك المال والخبرة والتكنولوجيا المتقدمة، والقادرة على توظيفها فى تشكيل الرأى العام، والاتجاهات، والثقافة، من خلال الإعلام وآليات البناء الفكرى المؤثر فى الغرب، من صحافة، وسينما، وتليفزيون، ومسرح، وقنوات فضائية، ومراكز للبحث، وتزييف للعلوم، وإخراج لنظريات زائفة، بمثابة الحق الذى يراد به باطل، خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولعل الأمثلة على هذا كثيرة جداً، منها على سبيل المثال نظرية التحديث Modernization ونظرية نهاية التاريخ، ونظرية صراع الحضارات، ونظرية سيادة الليبرالية...

هذه الأفكار وتلك النظريات المزيفة، والمصنوعة بيد باحثين، وبتوجيه من المؤسسات السياسية والاستخبارية الغربية لم تتوقف، فقد عرض حديثا "**بول كنيدى**" أستاذ التاريخ فى جامعة "يال" الأمريكية، وصاحب كتاب "ارتفاع وانهيار القوى العظمى" المترجم إلى اللغة العربية، عرض فى جريدة "**نيويورك تايمز**" فى ٢٧ يناير ٢٠٠٢ دراسة "**د.برنارد لويس**" المتخصص فى الدراسات الإسلامية والشرق الوسط عنوانها: "الخطأ الحادث فى العلاقة بين الإسلام والغرب" وفيها يرى "لويس" أن إرهاب الحادى عشر من سبتمبر فى أمريكا، ليس هو الذى أثار فكرة إعداد الدراسة، لأنه بدأها قبل بداية هذا التاريخ، ويرى أن إشكالية العلاقة بين الغرب والإسلام، هو **رفض الإسلام والمسلمين** التعامل مع متغيرات العصر وأهمها: "**العولمة الاقتصادية، والديمقراطية السياسية، والتعددية الأمريكية**"، وهى المتغيرات التى تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، وفى نظره أن الدول الإسلامية **عاجزة ورافضة** للتواصل مع الغرب، ومع كل جوانب العقلانية والعلمنة والتقنيات الحديثة، والمسلمون فى نظره يعيشون فى

أوهام أمجاد الماضى، وقد رفضوا التعاون مع كل جوانب التقدم الذى أفرزه العقل الغربى، ابتداء من التنمية الاقتصادية، والتصنيع، والديمقراطية التى قادتها بريطانيا منذ عام ١٧٦٠م وتبعيتها فرنسا ثم أمريكا، وإشكالية المسلمين فى نظر "لويس" هى رفض **فصل الدين عن الدولة**، وعدم القدرة على التواصل مع حضارات وأفكار (الآخر)، وبالتالى معاداتها، وعدم الاستفادة منها، والمسلمون فى نظره عاجزون عن فهم كيف يبدع الآخرون، وعن الاستفادة من هذه الإبداعات، ويرى "لويس" أن حل الإشكالية والقضاء على تخلف المسلمين، لا يتحقق إلا بالتخلى عن **كراهية** المسلمين للحضارة الغربية **والاندماج** فى النظام العالمى الجديد...، هذه الرؤية القديمة المتجددة فى الغرب، أن الإسلام هو العدو الأساسى للتقدم والحضارة الغربية، وهو ما تردده قيادات فكرية مثل: "فريدمان"، "هنتنجتون"، "فوكوياما" وأيضا سياسية مثل "مارجريت تاتشر" وغيرهم. (٥٩: ٨-١٠)

رابعا: الإسلام فى المناهج الدراسية فى بعض الدول الغربية

تعتبر المناهج الدراسية فى المراحل التعليمية المختلفة... وسيلة خطيرة فى إرساء وترسيخ المفاهيم لدى التلاميذ، خاصة فى المراحل المبكرة، وأحياناً تمثل الوسيلة الوحيدة لتشكيل ثقافة الأجيال عن العالم المحيط، ويمكن من خلال المناهج الدراسية - وخاصة العلوم الاجتماعية مثل والجغرافيا والتاريخ - ترسيخ مفاهيم بعينها تتفق وسياسة الدولة، ومن هنا يمكن لهذه **المناهج رسم تصور بعينه لدى الدارسين عن ملامح وصفات العرب عامة والمسلمين خاصة، وكذلك عن الصراع العربى الإسرائيلى.**

ولقد كشفت الدراسات والبحوث العلمية التى اهتمت بتحليل مضمون بعض المناهج الدراسية فى المراحل التعليمية المختلفة، فى بعض البلاد الغربية، عن التعمد المقصود لتشويه صورة العرب والمسلمين لدى الأجيال الناشئة فى

بلادهم، ومن بين هذه الدراسات التى كشفت عن هذا التشويه وتلك الأباطيل، **دراسة مارلين نصر** (٣٥)، حيث استهدفت دراسة العرب والإسلام فى الكتب المدرسية الفرنسية للمواد غير العلمية وهى: (القراءة، التاريخ، الجغرافيا، التربية المدنية)، وشملت الدراسة **المرحلتين الابتدائية والثانوية**، على اعتبار أنه فى المرحلة الابتدائية يتم تكوين وتثبيت الصورة، والأحكام، والمفاهيم فى أذهان التلاميذ. ولما كانت المادة الدراسية فى المرحلة الابتدائية محدودة ومرتبطة بالاهتمامات الفرنسية القومية، قامت الباحثة بتحليل مضمون ذات هذه المواد الدراسية فى المرحلة الثانوية أيضا، للوقوف على النواحى الثابتة والمتغيرة فيهما.

واتخذت الباحثة أربعة كتب لأربعة فصول دراسية **لأربعة دور نشر** على أن تتصف هذه الدور بأنها تغطى أكثر من ٦٠% من سوق الكتاب المدرسى بفرنسا، ويعكس هذا التعدد للمؤلفين ودور النشر بالنسبة للكتاب الواحد، والفصل الدراسى الواحد، مدى تنوع الرؤى الخاصة بالعرب والإسلام فى تلك الكتب، وكانت جميع دور النشر **علمانية**، وميزت الباحثة بين رؤى مختلف المؤلفين حول العرب والإسلام، على أساس ابتعادهم عن الذات، أو التركيز عليها، أكثر من مدى **انتمائهم** السياسى: (اليمن – اليسار – ارتباطهم بالليبرالية أو الاشتراكية)، دون تجاهل الباحثة أن الكتب محل الدراسة فرنسية، أى أنها مدفوعة باتجاه طبيعى نحو تقدير الذات، **وتقيمها إيجابياً**.

وشملت عينة الدراسة (٨٥ كتاباً) فى المواد السابق ذكرها، وتغطى الفصول المدرسية فى المرحلتين الابتدائية، والثانوية، خلال عام ١٩٨٦، على أساس آخر ما تم نشره بالنسبة لكل فصل، وكل مادة.

وسعت الدراسة إلى تحديد كيفية إنتاج صورة العرب، والإسلام فى تلك الكتب، من خلال عملية **تحليل الكتابة**، أو الصياغة التى تناولتها، أى تحديد

المواد والعناصر التى استخدمت فى إخراجها، وإنتاجها، والعملية التى من خلالها تم ترتيب هذه المواد وتحويلها، أى صياغتها لإنتاج الصورة ويتعلق الأمر هنا بالعملية الديناميكية لإنتاج الصورة، من قِبَل المؤلف المباشر، المؤرخ، أو عالم الجغرافيا، أو الكاتب الأدبى، وهذا المستوى العميق من التحليل، أى المستوى الكامن للخطاب لا يتضح من مجرد القراءة المتواصلة والتحليل البيانى، بل يتعين للتوصل إليه تفكيك كل من النصوص ومرفقاتها لاكتشاف الطريقة التى تم بواسطتها إنتاج الصورة، وعليه فقد قامت الباحثة بإجراء **التحليلات التالية** وصولاً للهدف من الدراسة:

- تحليل النصوص، الصور، الرسوم، العناوين، وتم استخدام قواعد التحليل الموضوعى بهدف استخلاص المواضيع الأصلية، والفرعية، التى تم تناولها، مع تصنيفها.

- قامت الباحثة بإجراء تحليل كمى، لتقدير المكان الذى يشغله كل موضوع من حيث: (عدد الصفحات، عدد الأسطر فى الجغرافيا والقراءة، مع مقارنتها وتحليل كيفية ترتيب وتوالى حلقات الأحداث، أو إغفالها فى مادة التاريخ، وتحليل نوعية الأسباب التى تقدم لشرح الظاهرة التاريخية).

- كذلك قامت الباحثة بتحليل المواد التى استخدمها المؤلفون، والأسلوب الذى اتبعوه لإنتاج صورة كل من العرب، والإسلام فى تلك الكتب (٣٥: ١٤-٢٠)

وتوصلت الدراسة من خلال تحليل مضمون هذه الكتب إلى عدة نتائج أهمها:

١-تم تناول العرب فى الزمن الماضى، ولم يتم التعرض لحياتهم وثقافتهم المعاصرة إلا بصورة جزئية، وهامشية جداً.

٢-أظهر التحليل أن العرب فى الكتب المقررة، هم بلا مكان، ولا أرض، وإن حُدد مكانهم كان هناك تأكيد على إنهم شاردون فى منطقة صحراوية،

وإنهم بدو رُحل، ونادراً ما يشار إليهم على أنهم يقيمون فى منطقة البحر المتوسط المعتدلة، واختفى الحيز الريفى والحضرى، إلا فى أجزاء ضعيفة جداً، وحددت بأنها مدن من الصفيح وذات طابع هامشى، أو مخيم للاجئين الفلسطينيين، ذى موقع غير محدد على الحدود السورية.

- تم **تجاهل مفردة "العالم العربى"** وإن ذكر يقدم على إنه خالياً من البشر، وأن العرب شاردون فى الصحراء، دون أرض لهم محددة، ويأتون من الخارج ليقيموا فى أرض الآخرين أو لغزوها.
- بالنسبة للمسألة الفلسطينية استخدم كل المؤلفين تعبير "الأرض المقدسة"، ولم يشيروا فى أى مكان إلى **مفردة "فلسطين"**، وكأن هذا الاسم محظور استخدامه، ولم ينسب للفلسطينيين والعرب أى أرض خاصة بهم. كما ظهر اتجاهان بالنسبة لفلسطين، **الأول** منحاز لإسرائيل ولم يشر إلى دولة فلسطين حتى قبل بداية الاستيطان اليهودى وكأن فلسطين كانت خالية من السكان، ويشير المؤلفون بغير نقد إلى الحقوق التاريخية للصهاينة فى فلسطين، أما **الاتجاه الثانى**: فلا يذكر فلسطين قبل عام ١٩٤٨، ويضع عبارة الاستعمار الصهيونى بين هلالين، وينسب إلى الإمبريالية وحدها المسئولية عن هذه المشكلة، وتجنب أصحاب هذا الاتجاه إثارة موضوع الأرض والنزاع حولها.
- بالنسبة للحروب الإسرائيلية/ العربية جاءت **الكلمات المستخدمة** بالنسبة "للأرض" تختلف **ولصالح إسرائيل**، مثل: (تنمى أرضها، تسيطر عليها، تحتفظ بها، تستردها) واختفت العبارات التى توحى بأن هذه الأرض ليست ملكاً لها، وغالباً ما ينسب إلى الفاعل الإسرائيلى الأفعال ذات المدلول الإيجابى.

٣- **أظهر التحليل تشويه الحضارة العربية الإسلامية فى الكتب المقررة، بين تدنى مستوى هذه الحضارة أو نفيها**، وإن كان فى المرحلة الثانوية تغيرت النبرة وأبدت الحضارة الإسلامية تسامحاً مع الديانات الموحدة الأخرى، ولكن هناك شبه إجماع لدى جميع المؤلفين على **سمات الحضارة الإسلامية** والتى حددوها فى التالى:

- الإسلام دين القواعد والخضوع.
- التوسع السريع للإسلام، دون الاهتمام بشرح أسبابه الجغرافية، والسياسية، وسياقه التاريخى.
- التأكيد على أن تاريخ الحضارة الإسلامية هو تاريخ الانقسامات.
- وجود أحادُية ثقافية وعرقية للعالم الإسلامى.
- وجود مزج، وترادف بين العربى، والإسلامى.
- المدنيّة والفنون غير متوافقة مع العروبة.
- المجتمع الإسلامى مجتمع عبودى.

٤- **أظهر التحليل أن العلاقات بين الفرنسيين والعرب** فى الكتب المدرسية **كانت كالتالى:**

- كانت **العلاقة تقوم على المجابهة، والتبعية، والدونية بأنواعها:** (الأخلاقية والاقتصادية)، وأن العربى دائما فى تبعية مهنية لشخصية فرنسية متفوقة عليه، فى كل المستويات، وإن فلت العربى من هذا الوصف فهو **متهما بالتمرد والنهب، ولا دور له فى الحدث.**
- **لا تعترف الكتب بأى نجاح للعرب** وهم دائما خاسرون منذ الفتح العربى، عندما نجح "شارل مارتل" فى صدهم عند "بواتيية"، ولا تعترف الكتب بأى نجاح حققه "صلاح الدين الأيوبى" بفتح القدس الشريف، ولا فشل حرب

السويس عام ١٩٥٦، ولا تدمير خط بارليف عام ١٩٧٣، فالمؤلفون فى مجموعهم لا يشيرون أدنى إشارة إلى أكثرها أهمية.

٥- **وعلى مستوى الخطاب المدرسى الكامن، كان العرب/ الفرنسيون، ثنائى متعارض** حيث تبين التالى:

- **لا يوجد تعادل فى إثبات هوية الفاعلين** فى التاريخ وشخصيات القصص من العرب والفرنسيين.
- **وجود اتجاه نحو تجاهل الفاعل العربى والشخصية العربية**، مقابل زيادة التأكيد على هوية الفاعل الفرنسى، ووجود ميل إلى المبالغة فى تحديد هوية الفاعل القومى الفرنسى، حيث يذكر الأسماء، والشخصيات وأسماء الأحزاب وغيرها، فى حين يتعمد تجاهل الفاعل العربى، واعتباره شيئاً غائباً معزولاً، وطمس هويته، بل واقترانه بالدونية وجمود الفاعلية، وأن يظل العربى فى موقع المتلقى، والمتقبل السلبى المهزوم، وتوصف الشخصيات العربية بأنهم (لا يتحركون، جامدون، بطيئون فى العمل، مطيعون لأوامر رؤسائهم، يهربون أمام المخاطر، يقبلون الاتهامات الظالمة دون الدفاع عن أنفسهم، قدريّون يؤمنون بالنصيب، وفى أحسن الأحوال يحلمون بالهرب، إلى عالم خيالى ينتمى إلى الماضى).

٦- **اتخذت القوالب المكونة لصورة العرب والمسلمين فى الكتب المدرسية** ثلاثة أشكال هى: (قوالب وصفية، قوالب تتعلق بوضع العرب ومركزهم (موقفيه)، قوالب بنيوية).

(أ) قوالب **معادية للعرب ولكنها قد اندثرت** إلى حد ما، **لأنها** كانت تتعلق بعصر الاستعمار، وما سبقه، حيث وصف العرب بالبدائية، والتخلف، والتعصب، والنهب والسرقة.

(ب) **القوالب المعادية للعرب – وهى محل خلاف بين المؤلفين**– فهناك من يثبتها وهناك من يرفضها، ومنها ما يلى طبقا لما ورد فى الكتب المقررة:

- الإسلام يقوم على التعصب، وإن كان هناك تسامح فهو فى حدود ضيقة جدا.
- العرب قدريّون، ويؤمنون بالخرافات والأساطير.
- العرب خوافون وجبناء.
- العرب بدو رُحل متنقلون لا أرض لهم، وهم دخلاء على أرض الغير، ويطمعون فى ثرواتهم.
- العربى بطئ كسول، وضعيف الإنتاج.
- العرب قد تم إسكاتهم، وهذه السمة تمثل اغلب الشخصيات العربية، فى الروايات الأدبية الفرنسية، فالعرب نادراً ما يتحدثون، وإذا نطق أحدهم فكلامه متقطع، وبه لجلجة أو اعتراضات دفاعية.

(ج) **القوالب الراسخة/ المعادية للعرب**، وهذه القوالب تحدد طبيعة العلاقة بين العرب والفرنسيين، وهى تمثل النواة الصلبة فى تكوين صورة العرب، فى الكتب المدرسية الفرنسية حيث:

- وضع العرب دائما فى منسوب أدنى ومركز أضعف.
- العرب يخضعون للسيطرة، فيطيعون، ويخدمون، ويسكتون.
- فى الأدب الفرنسى – تنتهى المجابهة بهزيمة العرب، أو موتهم، أو استسلامهم أو هروبهم، حتى يتأكد فى النهاية فشل الشخصية العربية.
- الانتصارات العربية إما تهمل تماماً، أو تحول إلى هزائم، مثل الفتح العربى الذى تحول إلى هزيمة فى معركة "بواتيية"، أو حرب تنتهى بلا منتصر، ولا منهزم مثل حرب ١٩٧٣ بين إسرائيل ومصر، وأن استقلال الجزائر عن فرنسا منحة من فرنسا للجزائر.

هذه القوالب الثلاثة: (الوصفية، الموقفية، البنيوية)، والتى تواكب العرب أينما وجدوا، فى الخطاب المدرسى، تكوّن مجتمعة أساساً حقيقياً لخطاب **عنصرى**، فهذا الخطاب ينتج أثره من خلال **إخفاء هوية الضحية**، واستخدام جمع الاسم العرقى (العرب) للإشارة إليها ثم تدنيها، ثم تجريدها من الدور الفاعل، فى مواجهة المجموعة القومية الفرنسية، التى تتمتع دائما بصفات التفوق، والقوة، والثراء، والعمل الإيجابى، وتقدم ضحية العنصرية فى معظم الأحيان، فى دور الفاعل السلبى المعتدى والغازى والمدمر والغاصب.

١- **الخطاب المعادى للعنصرية فى الكتب المدرسية** لم يقدم دحضاً مناسباً للقوالب المعادية للعرب، التى تتخلل مجموع نصوص المواد المتعلقة بالعرب، على المستوى الكامن.

٢- وفى تساؤل للباحثة حول مدى نجاح الاختلاف بين الناشرين فى إضعاف أثر بعض القوالب، والتقليل من تأثير نظرته إلى العرب والإسلام، متمحوره حول الذات القومية، تبين من التحليل أن:

- جميع المؤلفين يشتركون فى استخدام أساليب تخفيف الأفعال السلبية التى تصدر عن الفاعل الفرنسى مثل: جعل كل من الفاعل والمتلقى **غير محددين**، أو نقل مكانهما فى الجملة، أو إلغائهما، وفى المقابل نجد مبالغة فى تحديد هوية الفاعل العربى، عندما يكون فعله سلبياً، ويكون متلقى الفعل عندئذ محدداً أيضا.

- إن حرص المؤلفين على الابتعاد عن الذات، لا يصل إلى المستوى الكامن فى الخطاب سواء عند تقديم الذات، أو عند تقديم الآخر.

- **وأوصت الباحثة** فى نهاية دراستها إنه لكى يتم تغيير الصورة السلبية للعرب والإسلام، لا يكفى مجرد الجهد الواعى من قبل المؤلفين، لإظهار

الموضوعية فى التناول، والابتعاد عن الذات، بأن يضعوا أنفسهي موضع الآخر، وينظروا بعين الاعتبار إلى دوره.

- **ضرورة إدخال رؤية الآخر (العربى) فى الكتب المدرسية، بمعنى أن يقدم العربى الصورة التى أنتجها عن نفسه، دون تدخل الذات (الفرنسى)**، وبعبارة أدق إجراء بعض التغيرات فى إنتاج الكتب المدرسية: كأن يدرج بعض المقتطفات من الأدب العربى المعاصر – فى مادة القراءة – إلى جانب مقتطفات الأدب الناطق بالفرنسية (العربى أو البربرى) التى حققت بالفعل تغيراً فى المنظور، **واستبعاد الأدب الاستعمارى**، وأن يحل محل حكايات ألف ليلة وليلة الأسطورية، **مقتطفات من الأدب العربى المعاصر**، لمؤلفين عرُب مشهود لهم فى بلادهم وعلى النطاق الدولى، كضمان لقيمة ما يقدمونه من أدب، كى تكون شخصيات القصص من عرب وبرابرة معبرة أصدق تعبير عن الآخر (العربى).
- تخصيص مكان أكبر **للعلاقات غير التنازعية** بين العرب، وفرنسا.
- المجابهة بين وجهات نظر طرفى الصراع، أكثر فائدة من مجرد سرد وجهة نظر طرف واحد فقط.
- **إدراج النظرتين المتعارضتين فى قصص المجابهة**، النظرة القومية، ووجهة نظر الخصم القومى كما يقدمها مؤلفو الكتب، عندئذ سيكتسب المتلقون قدرة أكبر على فهم وتقييم العلاقات بين الشعوب، والثقافات، بفضل تنوع وجهات النظر والمصادر المقدمة إليهم (٣٥: ٣٠٧-٣٤٠).

كذلك كشفت **إحدى الدراسات** (٦٣) **والتى قامت بها الجمعية الفرنسية**(*) عن تعمد الغرب تشويه صورة العرب والمسلمين، وتأكد ذلك من

(*) راجع: مارلين نصر، صورة العرب والإسلام فى الكتب المدرسية الفرنسية، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، يناير ١٩٩٥، ص ص ١١٧-١٢٠.

خلال ما أسفر عنه تحليل مضمون (أحد عشر كتاباً) للتاريخ للصفين الخامس والساد؟ من المرحلة الثانوية لعام ١٩٨٠-١٩٨١، والصادرة عن ثمانى دور للنشر بفرنسا، وقد توصل الباحثون إلى عدة نتائج جميعها مجحفة، ودونت فى التقرير الذى أعدته اللجنة المكونة من خبراء فى تاريخ العالم العربى والإسلامى، وهم متنوعى التخصص، **وكانت أهم هذه النتائج ما يلى:**

- الصمت حيال **مساهمة الإسلام** فى تطور الحضارة الغربية.
- جاء تركيب العبارات، والجُمَلْ، يبرز روح **القدرية، والتعصب، والوحشية، وعدم التسامح.**
- البلدان التى فى طريقها للخضوع للسيطرة العربية الإسلامية، منعزلة فى الوقت والمكان.
- يسود **سوء التقدير** للحياة الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية التى كانت قائمة فى الجزيرة العربية، التى وصفت بـ "البلاد الصحراوية الشاسعة، التى لا تسكنها إلا قبائل صغيرة راحلة، يقوم بينها التنافس على الدوام" ولا يوجد فيها إشارة إلى أنها توجد على تخوم الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، أو إشارة إلى الخليط الدينى اليهودى والمسيحى.
- ينتقد التقرير الطريقة النفسية، فى تقديم **شخصية النبى** محمد ﷺ، حيث قدمت "شخصيته كشخصية غريبة وطفولة تعيسة" وأنه "اقتبس من الديانات الأخرى"، "وأعلن إنه قد تلقى الوحى الإلهى".
- وينتقد التقرير كذلك **سكوت** الكتب المدرسية عن شرح "سرعة الفتح العربى الإسلامى، التى تعود إلى الظروف المناسبة"، ويشير التقرير إلى أن سماحة الفاتحين وحركة التعريب ينظر إليها بطريقة خاطئة، حيث ورد بالنص "لقد فرض العرب فى كل مكان ديانتهم، ولغتهم، وكانت الحريات المتروكة للمسيحيين، تهدف إلى تحقيق مكاسب مالية".

- يبرز التقرير وجود **خلط ولبس** بين (العربى)، (المسلم) اللذان يعتبران فى معظم الأحيان مترادفين.
- يرى التقرير إن النظرة التى تطرحها الكتب المدرسية، عن الحضارة الإسلامية تصبح محلاً **لنقد أكبر**، بعد القراءة الأولية لها، أى بعد التحليل الأعمق لها.
- وينتقد التقرير **غياب الاستمرارية التاريخية**، فى تاريخ الإسلام، وينتقد مفهوم "التاريخ فى مشاهد" الذى تبدو فيه الحضارة ساكنة، بل ولا زمنية، ويمحى محيطها التاريخى".
- كما ينتقد التقرير النزعة الخافية، والخبيثة الداعية إلى **التمحور حول أوروبا**، والتى لا ترى فى الإسلام إلا مقلداً، لا يتمتع بخيال مبدع، ومثال ذلك **تلك العبارات كما وردت فى الكتب محل الدراسة:**
- إن العرب وإن لم يكونوا من كبار المبتكرين، إلا أنهم عرفوا كيف يستفيدوا من تراث العصور القديمة، وكيف يستوعبون تقاليد البلدان المحتلة، ثم ينقلونها إلينا.
- لقد حافظ المسلمون أولا على العلوم اليونانية القديمة.
- ويرى التقرير أن مثل هذا القول، يقلل من شأن الفكر العربى، الذى كان فكراً حياً ومبدعاً.
- وينتهى التقرير إلى تلخيص **نظرة كتب التاريخ المدرسية – فى المرحلة الثانوية بفرنسا– إلى الإسلام، فى الملامح الأربع التالية:**

١– **التغريب**: حيث التحدث عن الخلفاء العباسيين من خلال عالم للسحر فى حدائق بغداد، وكنوز سندباد، وتناسى انبساط الدولة، كما تناسى الأرض، كمصدر رئيسى للموارد، وأهمل النظام المالى، الذى أمكن بواسطته توفير جانب كبير من هذه الموارد لصالح المجالات الحضرية والدولة. والإشارة

إلى الفلسفة والعلوم لا تبدو محددة، إلا فى مجال الطب حيث (تعدد الإكسير، والشراب، والمراهم والتمر هندى ... الخ).

٢- **النظرة التبسيطية**: فحل الاتجاه المديحى، محل التحقير والجهل اللذين ظلا سائدين طويلاً فى كتب الغرب المدرسية، **فهى تمحو أوجه الاختلاف**، وعلاقات الصراع، على سبيل المثال، محو العلاقات بين محمد ﷺ وأهل الكتاب.

٣- **تبرير الفقر**: "دكتاتورية الفقراء فى القرآن"، "العرق والشقاء: شعب بغداد"، "حى باريس هو الحى العربى فى باريس"

٤- "**حضارة ميتة، وثقافة من الماضى**، لا يبقى منها حالياً إلا صروح الماضى الجميلة". (٣٥ :١١٧-١٢٠).

ونفس الصورة المشوهة -عن قصد-، للعرب والمسلمين، كشفت عنها دراسة **بريسورك، وبيرو**(*) **Preiswerk et Perro** (٧٣)، والتى قامت بتحليل مضمون بعض الكتب المدرسية، خاصة فى مادة التاريخ فى المرحلة الثانوية، فى بعض البلدان الأوروبية، حيث لم تخصص إلا جانباً من أحد الفصول للقوالب المتعلقة بالإسلام، واستندت الدراسة إلى ثمانية كتب موزعة بالتساوى بين دارين من دور النشر [ناتان-افريك ١٩٦٧، وهاشيت ١٩٧٠-١٩٧١]. واستخلصت الدراسة **ثلاثة قوالب** كبرى تنسب دائما **إلى العرب** والمسلمين، فى نصوص الكتب التى تناولت الحضارة الإسلامية وهى **(التعصب، العدوان، التوسع)**، حيث كان ما وصفوه بالتعصب الإسلامى، يرد دائما كصفة جاهزة لشرح أو وصف كل ما يتعلق من قريب أو من بعيد بأحد العرب، والوجود المستمر لهذا القالب يوجد إحساساً بأن **(العربى المتعصب)** تعبير من كلمة واحدة، لا انفصام فيها، كما أسفر التحليل عن ارتباط سيرة العرب، وبصفة

(*) راجع: مارلين نصر، المرجع السابق، ص ١١٧، ١١٨.

شبه أوتوماتيكية، بفكرة **العدوان والنهب والسلب**، وكذلك الحط من قدر العالم الإسلامى، ووصفه **بالانحطاط**، وخاصة فى مصر وشمال أفريقيا، والشرق الأوسط، وأن الإسلام كان يتسرب إلى كل مكان، مستفيداً من ركود الشعوب الموجودة على الشواطئ (٣٥: ١١٧-١١٨).

❖ وهكذا يتضح تعمد الكتب الدراسية الغربية، قولبة العرب والمسلمين فى قوالب بعينها، قوالب باطلة، مستهدفة النيل من مكانة الإسلام والمسلمين، والعرب، كما تتعمد تنشئة أجيالهم على الكراهية وتنمية نظرة الازدراء والتدنى لكل ما هو عربى، أو إسلامى مما يدعم العنصرية ويعمق مشاعر العداء للإسلام والمسلمين والعرب.

واستمرارا لتعمد الغرب -عن قصد- تشويه صورة العرب والمسلمين، لدى الأجيال الناشئة، نشير إلى نتائج عدد من الدراسات(*)، منها ما توصلت إليه دراسة "**جمعية دراسات الشرق الأوسط** (٧٧) عام ١٩٧٥ التى أجريت تحليل مضمون لعدد (٨٠ كتاباً) مقررا على المرحلة الثانوية، فى كل من أمريكا وكندا، وتوصلت الدراسة إلى أن هذه الكتب عمدت فى مضمونها إلى التالى: تشويه صورة بلاد العرب ونعتهم بالتخلف، وأن العرب بدو، ودعمت ذلك بصور فوتوغرافية، وأن العالم العربى عدو للولايات المتحدة، وأن إسرائيل هى الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط، وأن حل مشكلات الشرق الأوسط لن تتم إلا بربطها الكامل بعجلة الغرب.

كما كشفت **دراسة "كينى L.K.Kenny"**(**)(٦٨) عام ١٩٧٥، أن كتب التاريخ والجغرافيا – فى أونتاريو بكندا – تذخر بوقائع غير دقيقة وافتراضات

(*) راجع: بكر أحمد باقادر "صورة العرب فى بعض الكتابات الغربية" فى المحاضرات مجلد (٨) كتاب النادى الثقافى (٦١)، جدة، السعودية، ١٩٩٠، ص ص ٢٤١-٢٥٠.

(**) هذه الدراسة مكونة من ثلاثة أجزاء، الأول: تضمن تحليلاً لردود المدرسين حول صورة العالم العربى، والجزء الثانى والثالث: تضمن تحليل مضمون لكيفية تناول الشرق الأوسط فى كتب التاريخ والجغرافيا.

مشكوك فيها، وحالات حذف كبيرة، بهدف تكريس مفاهيم إسلامية خاطئة، عن الدين الإسلامى وعن الثقافة والحضارة الإسلامية، وتجاهلت إسهام الحضارة الإسلامية وفضلها على الحضارة الغربية، وأكدت على عنصر البداوة لدى العرب، وأن إسرائيل هى التى حولت الصحراء إلى جنة، كما أفردت لها مساحات أكبر فى كل كتاب مدرسى. وهى بذلك متفقة مسح دراسة "**إياد القزاز A Al Gazzaz**"(٧٤) عام ١٩٧٥/٧٤ التى تناولت بالتحليل كتب العلوم الاجتماعية، فى المدرسة الأمريكية بكالفورنيا، فى الصفوف (من رياض الأطفال إلى الصف التاسع)، وتوصلت الدراسة إلى أن هذه الكتب تؤكد على البداوة، وتصف العرب بالإغارة والسلب، وتقدم صورة سلبية للإسلام، وتركز على جهل المرأة وأميتها، وتصور إسرائيل على أنها الدولة الوحيدة الديمقراطية فى المنطقة، وأن جيرانها حاقدون عليها، وأنها حولت صحارى فلسطين إلى جنة خضراء، وأغفلت حقوق الشعب الفلسطينى تماما.

واستمراراً للتزييف والحذف والتأكيد على ما هو لصالح الغرب وإسرائيل، وضد الإسلام والعرب، توصلت دراسة "**القزاز وآخرون Al .. A Qazaz et al.,**" (٧٥)، عام ١٩٧٨ - من خلال تحليل مضمون عدد (٢٤) كتاباً فى مجال الجغرافيا، والتاريخ، والدراسات الاجتماعية، فى المدارس الابتدائية والثانوية بكاليفورنيا - إلى أنه قد تم وصف العرب بالبداوة والتخلف رغم أن نسبة البدو لا تزيد عن (٥%) من إجمالى السكان العرب، فى حين وصفت إسرائيل بأنها بلد متطور، ديمقراطى، قريب الشبه بالغرب، وأن الأحياء العربية قذرة ينتشر بها الأمراض والذباب، وأن المرأة المسلمة متدينة، وذات مركز متدن، وجاهلة وأمية ولا تلتحق بالتعلم.

كما توصلت دراسة "**زيادة واكسن F. . Ziadah and C. Allen**" (٧٩)، عام ١٩٧٦، - من خلال تحليل مضمون موضوعات فى (الجغرافيا

والتاريخ والسياسة والدين والمعمار واللغة والأدب والمجتمع) المقررة على المرحلتين الابتدائية والثانوية بأمريكا - إلى عدة نتائج كان أهمها:

أن مصر بلد محافظ لا يقبل التغيير، وإغفال فترات تاريخية فى حياة مصر، وجاءت المعلومات عن مصر بعد الثورة قليلة جداً، ونوقشت قناة السويس فى إطار سياسى لا جغرافى، تجاهلت الفن والمعمار واللغة والأدب فى العصرين الوسيط والحديث، وركزت الكتابة عن المجتمع المصرى الحديث عن الفلاحين، دون إشارة لأى تغيير يذكر منذ خمسة آلاف سنة، وركزت على الدين المسيحى فى مصر القديمة (فى كتب تكميلية) وناقشت المعتقدات الإسلامية (فى أقسام مستقلة) تتعلق بإنشاء الدولة العربية المسلمة.

كذلك جاءت دراسة "**جيلين بيرى Glenn Perry**"(٦٥)، عام ١٩٧٥ التى عكفت على تحليل مضمون (٢٠) كتاباً مدرسياً بالمدرسة الثانوية الأمريكية مستبعدة المواد التى تتعلق بالتاريخ قبل الإسلام وتوصلت إلى النتائج التالية:

الدين الإسلامى دين لا يقبل التسامح، وأن القرآن الكريم من جمع سيدنا محمد ﷺ، وكان التركيز على أن العرب بدو متخلفون.

وفى نص يتألف من (٧٠٠-٩٠٠ صفحة) خصص حوالى من (١٥-٢٥ صفحة) فقط عن الشرق الأوسط، كما تبين أن ستة عشر نصاً عن الصراع العربى الإسرائيلى، منهم خمسة فقط تناولت القضية بشىء من الموضوعية، وإن معظم النصوص جاءت تمجد إسرائيل، وتشيد بتقدمها، دون تقديم مناقشة مماثلة للإنجازات العربية، وخلو الكتب من أى مناقشات توضح أسباب معارضة العرب وفلسطين للصهيونية وإسرائيل، وزخرت النصوص بأوصاف سلبية لتأميم قناة السويس، وأن مصر هى محور القومية العربية.

❖ وهكذا أفصحت النتائج أن مضمون تلك الكتب الدراسية، قام على **هدف واحد وسار على خط ممتد لا اعوجاج فيه، هو تشويه صورة العرب عامة، والإسلام خاصة، والحط من قدرهم ومناصرة إسرائيل عليهم، وهذا ما يؤكده التالى بعد:**

- انحياز المقررات بحذف ما هو لصالح العرب، فجاءت بكل ما هو لصالح الغرب على حساب العرب.
- افتقار النصوص التى تخص البلاد العربية إلى النقاش والموضوعية.
- وجود أخطاء كبيرة فى السرد التاريخى، وحذف وتحريف للحقائق.
- تشويه صورة الدين الإسلامى ووصفه بأنه دين قتال وعنف. ولا يقبل التسامح، ونشر مفاهيم إسلامية خاطئة.
- إبراز كل ما يراه الغرب غريبا، عن الممارسات الإسلامية.
- التحقير من شأن المرأة المسلمة والادعاء أنها ذات مكانة متدنية.
- تجاهل دور الحضارة الإسلامية فى الحضارة الغربية.
- تجاهل العالم العربى الإسلامى واعتباره عدو للولايات المتحدة خاصة، والغرب عامة، وتجاهل إنجازاته على المسارات المختلفة ووصفه بالجهل والتخلف والبداوة.
- التأكيد على صفة البداوة وإلصاقها بالعالم الإسلامى، رغم أن نسبة البداوة لا تتجاوز (٥% من إجمالى السكان العرب).
- احتلال الشرق الأوسط نسبة ضئيلة جداً جداً بين صفحات النصوص المقررة.
- تجاهل الصراع العربى الإسرائيلى، حيث لم يتم تناوله بموضوعية، كما تم تجاهل القضية الفلسطينية كلية.

- اعتبار إسرائيل هى الدولة الوحيدة المتقدمة فى منطقة الشرق الأوسط، وأنها شبيهة بالغرب، وأنها هى التى عمرت الصحراء وحولتها إلى جنة خضراء.

- الادعاء بأن العرب يحقدون على إسرائيل لأنها دولة متقدمة.

وهذا العمد إلى التشويه المغرض لصورة العرب والمسلمين ،يدعمه قلة المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط، يحول دون أن تكون المعلومات كافية وصحيحة، وتأكد النقص فى المعلومات وعدم دقتها من خلال نتائج الاستبيانات التى وجهت إلى بعض المدرسين الذين تقع على عاتقهم عملية تنشئة الأجيال وإكسابهم المعلومات، فلقد كانت النتائج على نفس المستوى المتدنى لمضمون الكتب الدراسية، وهذا ما كشفت عنه الدراسات التالية (*).

دراسة "كينى **L.K Kenny**"(٦٨)(**)، عام ١٩٧٢ التى حللت ردود (١٢٦) مدرساً من المدرسين الكنديين حول [التدريب الذى تلقوه عن الشرق الأوسط، وانطباعاتهم عن هذه المنطقة ومكانتها فى منهج التاريخ]، فجاءت النتائج تشير إلى التالى:

- قلة التدريب وقلة الخبرة المكتسبة عن الشرق الأوسط، وأن معظمهم يعتمدون على الكتب المدرسية فى معرفة المعلومات المطلوبة، وحوالى ٦٠% منهم قالوا أن الكتب تميل نحو اليهود، ٤٨% قالوا أنها تؤيد قضايا اليهود، وأظهر عدد كبير من المدرسين تحيزاً ضد العرب، وتركيا والفلسطينيين.

- وصفوا العرب بالوحشية، وعدم التدين، والبداوة، والتخلف، والوقوف ضد إسرائيل، بينما وصفوا اليهود بالتدين والصلافة العدوانية وأنهم فى مركز الصراع على امتداد التاريخ.

(*) راجع: بكر أحمد باقادر، مرجع سابق، ص ص ٢٥١-٢٥٧.

(**) نتائج الجزء الأول من دراسته السابقة.

- وجاء الوزن النسبى لتدريس مادة الشرق الأوسط حوالى (٢٧%) من إجمالى (١٢%) من منهج التاريخ المخصص للعالم الثالث.

دراسة "**مايكل سليمان Michael Suleman**"(٧١) عام ١٩٧٤، أظهرت النتائج أن (٦٦%) من عينة معلمى المرحلة الثانوية فى "كنساس" بأمريكا، والذين بلغ عددهم (١٧١ معلماً) لا يعرفون شيئاً عن أرض الشرق الأوسط، (٨٨%) منهم يرون أن تغطية الشرق الأوسط غير كافية، وفى توسع لهذه الدراسة بالتعاون مع "**يعقوب عبد الله أبو حلو Yaqub Abdalla**"(٧٨) عام ١٩٧٨، جاءت النتائج أكثر إنصافاً للحضارة الإسلامية، فمن خلال تحليل الاستبيان الموجهة إلى (١٧٠ مدرساً) بالمرحلة الثانوية، متخصصون فى العلوم الاجتماعية – بأمريكا، جاءت النتائج كالتالى:

- الأغلبية الكبرى من المدرسين تعتقد بأهمية الوطن العربى، ويجب تدريسه فى فصولهم.
- أن الإسلام لعب دوراً ملحوظاً فى تطور الحضارة الإنسانية.
- أن الثقافة العربية مزيج من تعاليم الإسلام والتقاليد العربية.
- أن الإسلام يشجع على تدنى مركز المرأة، ويشجع على الرق.
- أن النهضة الأوروبية تأثرت تأثراً إيجابياً بالإسهامات العربية فى ميدان العلوم.

❖ **وهكذا توضح** النتائج تدنى موقف المدرسين، والذى لا يقل سوء عن مضمون الكتب التى يدرسونها، بل معظمهم يعتمد فى معلوماته حول الشرق الأوسط على مضمون هذه الكتب، التى هى فى الأساس متدنية المستوى، وتفتقر إلى الدقة، والوضوح، والموضوعية فى نشر الحقائق، أو بتزيفها أو تحريفها أو حذف لها، حتى أصبح **هناك تعمية على كل من المدرسين، وطلابهم** ليس لافتقار المعلومات، ولكن للتعمية المقصودة بهدف التشويه للعرب والمسلمين،

وقد أرجع البعض الأسباب: لقلة مدة التدريب، أو قلة مدة الخبرة، ناهيك عن قلة المعلومات المتعلقة بالعالم العربى، ولذلك كان التحيز لإسرائيل بصورة واضحة، فى حين أتهم العرب بالوحشية، وعدم التدين، والبداوة، والتخلف، والحقد، والوقوف ضد إسرائيل، وعلى الرغم من الاعتراف بالدور الحضارى للإسلام إلا أنه هناك اتهام له بأنه يشجع على الرق وتدنى مكانة المرأة.

كان هذا هو حال الكتب المدرسية من المرحلة الابتدائية حتى الثانوية، ومثله تدنى المستوى المعرفى للحقائق المرتبطة بالشرق الأوسط والعرب والمسلمين، كذلك فإن **قصص الأطفال الصغار** لم تخلو من هذا التعمد المؤسف فى تزييف الحقائق وتشويه صورة العرب والمسلمين.

فقد توصلت **دراسة فوزى الأسمر** (٧: ٢٥٤-٢٥٧) عام ١٩٨٦ التى استهدفت تحليل مضمون ١٥٠ كتاباً قصصياً للأطفال فى إسرائيل إلى النتائج التالية:

- تصوير العرب على أنهم غرباء، وأن أرض فلسطين هى غير مسكونة ومهجورة، قبل مجيء اليهود الذين قاموا بإعمارها، فهى أرض لليهود، ولذا فإنه حينما يعود اليهود إلى فلسطين، فهم يعودون إلى الأرض المهجورة، وأن فلسطين لم تسكن منذ (٢٠٠٠ سنة)، وأن سكنها ناس فهم بدو رُحل.
- وتتعمد القصص أن ترسخ المفاهيم المطلوبة على لسان أصحابها كأن ينطق طفل عربى "إن هذه ليست أرضنا إنما هى لليهود كما يقول أجدادنا".
- العرب يحقدون على اليهود وأنهم يثيرون السخرية.
- العرب فى الغالب لصوص وقطاع طرق ولا يسرقون سوى اليهود.
- العربى بصورة عامة فاسد، ويعتقد أنه يمكنه شراء كل شيء لتحقيق مطامحه الخبيثة.

- العربى الذى له صورة إيجابية فى قصص الأطفال هو الذى يؤمن بالصهيونية، وقطع علاقته بهويته وكرامته، أما مَنْ يحاربون من أجل حقوقهم فهم لصوص، إرهابيون، مخربون، غوغاء تحركهم عصابات مغرضة.
- الجندى الفلسطينى لئيم يذبح اليهود بصورة متوحشة، بينما الجندى الإسرائيلى يحارب من أجل أهداف نبيلة.

❖ وهكذا جاءت جميع الكتابات سواء لطلاب المدرسة الابتدائية أو الثانوية وأيضا قصص الأطفال، وكأنها تسير فى نمط محدد بعينه، مقصود، يتسم بالتحيز للغرب وإسرائيل، والإجحاف والتجنى على العرب والمسلمين والإسلام، ولترسخ فكرة ثابتة بعينها، حتى أصبحت الأفكار نمطية، متكررة ميكانيكياً، وجميعها أفكار سلبية ليس لها أصل فى الواقع، وإنما هى افتراءات وأباطيل مقصودة، لتشويه صورة العرب عامة، والمسلمين خاصة.

إن هذا التشويه المقصود لكل من العرب والمسلمين، بتزييف الحقائق، سواء بالحذف، أو بالتحريف، سواء اتخذ هذا التشويه من كتابات المفكرين مجالاً، أو من دراسات موجهة لجمهور المتعلمين والمثقفين، أو من تصريحات الحكام والمسئولين والإعلاميين فى الصحف، ووسائل الاتصال الجماهيرية، أو من خلال الكتب الدراسية المقررة على التلاميذ من بداية السلم التعليمى، كما لم يسلم منها قصص الأطفال، **كافة هذه الوسائل طالتها يد الغدر بالمغالطات والتشويه المجحف**، على طول الخط، مما ينذر بالخطر الفادح إذا استمرت هذه السياسات والاستراتيجيات والممارسات، التى تؤكد حروب طاحنة فى الطريق لا محال، نتيجة تلك **الخطابات العنصرية الموجهة** والتى تستهدفنا كعرب وكمسلمين، وجميعها تؤكد بأن **الصهيونية العالمية، هى اليد المحركة** لهذا التشويه، ولصالحها ممثلة فى تلك الشوكة إسرائيل التى غُرست وسط العالم الإسلامى، صنيعة الغرب، الذى زرعها وسط عالمنا العربى ليستطيع من خلالها

إضعافنا، وبسط سيطرته وهيمنته على مقدراتنا وثرواتنا، صنيعته التى يدعمها بأعتى الترسانات الحربية المتطورة، ويمدها بالمعونات المالية بلا مقابل، ويساندها فى المؤسسات الدولية، ليحول دون إدانتها، لتظل قوية وبالمرصاد لعالمنا الإسلامى، وأصدق دليل على ذلك هو اجتياحها مناطق السلطة الفلسطينية عقب إعلان العرب عن مبادرة للسلام فى ٢٠٠٢/٣/٢٩ حيث عمدت إسرائيل إلى تدمير المدن والمخيمات الفلسطينية وإبادة الشعب الفلسطينى، بأعتى الأسلحة فى ترسانتها والتى أهداها لها الغرب، وخاصة أمريكا، تلك هى الحضارة الغربية المزعومة، التى تدعى رعايتها لحقوق الإنسان، والحرية، والديمقراطية، ها هى تؤازر إسرائيل صنيعتها، لتبتلع فلسطين، وتبيد أبنائها، تمهيداً لتنفيذ مخططات بعيدة تستهدف ثروات ومقدرات العالم العربى الإسلامى.

إن هذا (الآخر) نجحت الصهيونية العالمية فى تشويه الحقائق لديه، ليصبح فى عداء دائم مع الإسلام، ويتحين الفرصة للانقضاض على بلاد المسلمين –وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث ١١ سبتمبر التى مازال حتى الآن لم يتأكد مَنْ مدبرها – فقد أصبحت بسياستها المزعومة لمحاربة الإرهاب، **دولة مارقة**، تكاد تعلن الحرب على العالم كله، فتروّج لمحاربة الإرهاب دون تحديد لمعنى الإرهاب – وذلك عن قصد – حتى ترهب العالم كله وتخضعه، بل وخيّرته إما معها أو مع الإرهاب، فتزيد بذلك **أرضية الإرهاب**، فى وقت تدعى فيه بأنها تناصر الحرية، وتعتنق الديمقراطية، بل وراعية لحقوق الإنسان، وصارت فى إطار سياستها المزدوجة المعايير والتى تكيل فيها بمكيالين، تهمش دور المؤسسات الدولية، وتجعل من نفسها البوليس الدولى على العالم كله، بل وأنها فى محاولة جادة **لإعادة رسم خريطة العالم الإسلامى عامة، والمنطقة العربية خاصة، بما يخدم مصالحها، وأيضا مصالح الغرب**، ويحقق لهما الهيمنة وبسط النفوذ والسيطرة على ثروات هذه المنطقة، وسلب مقدراتها، أو تدميرها، وبالكيفية التى تراها، ولعل ذلك يفرض علينا أن

يكون لنا وقفة جادة وإيجابية معاً، كأمة عربية واحدة مسلمة، تبدأ بتقوى الله تعالى، واللجوء إليه وحده، وأن نغيّر ما بنفوسنا كشعوب وجماعات وأفراد حتى يغير الله تعالى ما نزل بنا، وما ينتظرنا، وأن يكون لدينا ثقة بأنفسنا، وأن نتحصن بالعلم والمعرفة، وأن نكون دائما فى حالة نقد لذواتنا لتصحيح أخطاءنا، والوصول إلى الأفضل فى ضوء المتغيرات المحيطة بنا، ودورنا فيها، وأثرها علينا، والعمل الجاد بكل وسائلنا المتاحة، على فضح بنية الخطاب العنصرى الغربى وتفنيده، والاحتياط والحذر فى مواجهته بكل أساليب المواجهة وعلى جميع الأصعدة وفى كل المستويات.

****